

ابراهيم عبد المجيد
الصياد واليمام
رواية
دار المستقبل العربي

○ ○ « الاسكندرية ، مدينة تقع على الساحل الشمالي لمصر . بناها الاسكندر المقدوني وأعطاها اسمه . وهي بموقعها الجميل ، مصيف كبير »

لم يفكر أن بالاسكندرية أرصفة وقطارات . وفي أيام بؤسه التالية ، كثيراً ما كان يضحك حين يتذكر كيف سأل تلميذ المدرس « أين كان يصطاف الناس لو لم يبن الاسكندر الاسكندرية ؟ »

لم يكن قد رأى هذه المدينة ، ولا كان يحلم أن يراها . فقط يتكرر اسمها في كتابي التاريخ والجغرافيا . ووحدة ، من بين الأسماء العديدة للمدن والأقطار ، كان له وقع خاص على سمعه ، وتأثير غير مفهوم على عينيه . مرة يقول أن جرسه جميل ، وحروفه الكثيرة ملفتة للنظر . ومرة أنها من بين كثير من المدن تنطق مسبوقة بالألف واللام . هكذا هي دائما في الكتب والاذاعات . فهي مدينة تختلف بالتأكيد عن غيرها . وشيء يقال كأنه معروف من أول الزمان . وهي ، وإن شابهتها بعض المدن أو الدول في ارتباط اسمها بالألف واللام ، فرسم

الاسكندرية أو جرسها ، متفرد كشجرة وحيدة في صحراء واسعة من رمال أو صخور . لكنه وقد سمع الجميع ينطقونها « اسكندرية » في حديثهم اليومي ، بعد أن دخلها من بابها الواسع الذي يدخلة الغرباء كل يوم ، فكر كيف ينطقون اسمها بإهمال . أى عداوة تقوم بين الناس والمدينة ، أو أى محبة تلك التي تنتهي بعدم اكتراث ؟ .

لم يكن مهتما بأن يجد أسم المدينة في بقية الكتب ، فقد كان يذاكر جيداً ! لكنه رسب ثلاث مرات متوالية فقال أبوه كأنه يتثاءب .

ـــ لا أستطيع أن أعيد قيدك مرة أخرى . عشرة جنيهات لا أملكها مرتين في عامين ، اعمل معي .

رأى أباه ينام فوق الحلم بأن يراه ناجحاً في الإعدادية فيترك كفر الزيات ، فناجحاً في التوجيهية فيغادر طنطا ، ثم ناجحاً في الجامعة فيعود من القاهرة شيئا كبيراً . أما هو فلم يكن يحلم . كان يشعر دائما أنه وحيد يمشي في العراء . وأحس أنه خذل الرجل الذي كان سيدبر النقود ـــ لو نجح ـــ من دمه . أوشك أن يقبل يديه محبة حين أعلنه بالعمل الذي يكرهه !

○ ○ ○

ـــ سننتقل إلى الاسكندرية .

قال أبوه مهموماً في مساء اليوم التالي فرأى أمه تصمت طويلاً . سمع المطر الثقيل البطىء يسقط فوق السطح ، وأطال أبوه صلاة العشاء .

ـــ هناك سكن لنا ؟

قالت الأم وما فرغ الأب من صلاته . سلَّم وقال في اقتضاب .

ـــ سكن المصلحة .

كانت ثياب أبيه في تلك الليلة أكثر اتساخاً . علق بها مازوت كثير . وكذلك كانت يداه التي لم يفلح « الجاز » في تنظيفها تماماً ، والتي كثيراً ما قلبهما أمامه داعيا أياه أن تجتهد لينجح حتى لايصبح « عسكري دريسة » ، فلا ذنب له كى يخلع القضبان القديمة ويركب الجديدة ، أو يحمل الفلنكات الخشبية والحديدية الثقيلة ويحفر أرضاً بهمة ، أو يخرج في قلب ليالى الشتاء لإصلاح ماينجم عن الحوادث الطارئة في وقت توّجب فيه نوم الملائكة والشياطين . وكان مثل أبيه يكره ذلك . يكره أكثر « سكن المصلحة » الذي يعيش فيه عمال الدريسة . فهو بعيد عن القرية . عن المدرسة . عن المدينة . عن كل شيء . بيوته العشرة يضمها الخوف بالليل ومن بعيد تخيف ! . تقبع فيها شمس النهار وتبدو قد نساها الدهر ! وفي كل الأحوال يبدو « السكن » شيئا سقط من قطار سريع ولم يسأل عنه أحد .

أعادت أمه السؤال كأنها لم تسمع . أعاد أبوه الاجابة كأنه لم يقل . قال المدرس وقالت الكتب أن الاسكندرية مدينة جميلة . لابد اذن أن سكن المصلحة بها مختلف . سيكون بعيداً عن القطارات العابرة فلن يتفرج عليهم أحد . لن تثير عجلات القطار غبارا تذره فوقهم . لن يخرج الأطفال الحفاة ليقذفوا القطارات بالحجارة ، سيكون الأطفال مثلما كان يدركون من كثرة القطارات وإختلاف وجوه ركابها ، أن الدنيا واسعة ، وربما لا نهاية لها ، بل أكبر من الكرة الأرضية ولا تدور في فراغ مثلها !!

لم يستطع أن يعلن لأبيه أن الاسكندرية لن تكون قاسية . إنه يحبه . حين دخل مدرسة القرية ، التي تبعد ثلاثة أميال يمشيهما مرتين كل يوم ، عرف أن

أباه عظيم لأنه الذي ركب وفرد القضبان الطويلة ، التي يمشي بينها وفوقها كل هذه المسافة . حين التحق بالمدرسة الاعدادية رأى المركز . صارت المسافة خمسة أميال . صار يحب أباه أكثر فهو مسكين ليعمل كل هذا العمل ، ولا يجب أن تترك أمه الدجاج يمرح في الحجرة فيقلق نومه ، خاصة وأنه كثيراً ما تصعد دجاجة الى صدر أبيه وتنقر عينه فينهض ، ولا يستطيع النوم مرة ثانية . وحين رأى المدينة لأول مرة ، وكانت مدينة طنطا ، خلال رحلة مدرسية ، ركب القطار وزار السيد البدوي . صلى مع زملائه وعاد يفكر ، أن رجالا مثل أبيه لابد قصار العمر . لكنه أيضاً فكر لماذا حين يذكرون « القرية » في كتب المدرسة ، يقولون بعدها « المدينة » ولا يأتي ذكر « المركز » ؟ . لم يكن قد رأى في طنطا مصانع ولا مداخن مثل التي في كفر الزيات . تساءل كثيراً حتى أدمن التساؤل . صار يحدث به نفسه بصوت مسموع ففاجأه المدرس .

— بماذا تتحدث أثناء الدرس ؟

أرتبك . تلعثم ثم أنطلق يسأل فقال المدرس دون تردد كأنما أنتظر السؤال .

— دائما ياولدي لا قيمة للأشياء النصف-نصف .

ماكاد يحاول أن يفهم حتى رأى العرق يقفز فوق جبين المدرس الذي جعل يتراجع قليلا قليلا حتى جلس الى مكتبه شبه منهار ثم أشعل سيجارة بيد مرتعشة ، وأخذ نفساً عميقاً وطأطأ رأسه ، ولما زفر سمع صوته ، وخرج الدخان قوياً متماسكاً اصطدم بالمكتب ، فتبعثر في شكل دائرة واسعة . ظل هو واقفا لا يستطيع الجلوس . أحس أن الفصل صار فارغا ولم يعد به غيره والمدرس الذي وضع السيجارة بين شفتيه ، ثم أحاط رأسه بكفيه ، واستغرق في النظر الى مكتبه قليلا ، وسرعان ماخرج معلنا أنه لا درس اليوم .

مغتما رأى أباه ينام . بات هو يفكر في القسوة والجمال ! . لن يفهم أبوه ماتقوله الكتب عن الاسكندرية . عند الفجر تعب . ما كاد ينام حتى شق المطر

الذي توحد بالليل صوت صراخ كهفي .

○ ○ — خذني معك أصطاد ...

جذبت الطفل بعيداً . أحضرت بلوفر .

— أرتديه تحت الجاكت .

ارتداه في تحفز . ناولته الجاكت الكاكي المبطن . أرتداه في تحفز أيضا .

— أنت متوتر .

تناول البندقية الخفيفة بطريقة تؤكد أنه سيقتل أحداً .

— ألا تقلع عن صيد اليمام ؟ .

نظر اليها بحدة ودهشة . أغمضت عينيها .

— أما آن لك أن تكفّ !؟

— خمسة عشر عاماً تصطاد اليمام !؟

— أنك تأكلين مما أصطاد ..

لم يفهم ، ربما لأكثر من ألف مرة ، كيف تنظر اليه . وكما يحدث كل يوم ، أرادت أن تقول شيئا فخرج شيىء آخر .

— لكنك مريض .

واقتربت منه . سعل خفيفا ثم بقوة . ترك البندقية والتفت يبصق بعيداً عنها . ناولته كوب ماء

— اشرب .

أشاح بذراعه . وضعت الكوب فوق كوميدينو . لم تستطع أن تمنع الدمعتين . استدار . احكم الجاكت . علق مخلاته حول كتفه . أمسك بالبندقية من جديد . غادر الحجرة بخطوات ثابتة مثل إله .

— خذني معك أصطاد .

سمع الصوت وهو يعبر الصالة . سمع الطفل يبكي فعرف أنها تنهره .
لحقت به عند الباب

— متى ستعود ؟

أول مرة تسأله ذلك .

— اليوم طبعاً

قالها بفتور . لكنه استدار . إنه إنسان طيب يتأمل عينيها الدامعتين كل يوم .

— خمس سنوات ولا صيد ومازلت تخرج . اليوم برد شديد ؟ .

— لاتخشى شيئاً .

ربت على كتفها . استدار ثانية . فتح الباب . أغلقه لأول مرة بنفسه . قال بعد أن غادر البيت « الحمقاء تقول أني لا أصطاد » . فكر أن الحماقة كثيراً ماتصدر عن قلب وديع . أحس أنه يمكن أن يقترب منها . أن يعود بهاء الأيام الأولى . آه لو يفهم ماذا باعد بينهما . بسرعة وجد نفسه قد وصل إلى منطقة الصيد . لاحظ أنه لم ير في الطريق أحداً . لم يقابله إلا وجه الريح .

حين تتشابه الأيام في زمن ، لايدركه الناس . وحين يفكرون يعرفون كم هو قبيح .

صورته لم تتغير كثيراً . اليوم والأمس . الشتاء والصيف . هذا العام والماضي . يداه وعيناه . بندقيته وحبات الرش الدقيقة البيضاء . المخلاة الكاكي . السروال الكاكي . الجاكت الكاكي . الحذاء الأسود الثقيل ذو الرقبة فوق السروال . الأنف الرفيع عالي العظمة . العينان الغائرتان والهالة السوداء حول كليهما . نظراته الفاحصة للسقف المغطى لنصف الرصيف . البناء المرتفع عن الأرض بين القضبان . العريض عشرين مترا . الطويل الف متر . بلاطه أسود مربع

واسع . الفجوات قنوات بين البلاط تستقر فيها حبات القمح ، الأذرة ، الشعير ، الفول . العمال الصعايدة حمالون . دائما حمالون . سقف الرصيف عال . رمادي قاتم . بنى متآكل . مائل إلى الجانبين . الواح الصاج التي يتكون منها كبيرة ومتعرجة . ثقوب كثيرة تتخللها . في الصيف تنفذ منها الأشعة فتفرش الرصيف ببقع شوهاء من الضوء . في الشتاء فراق ، الرصيف يكاد يدخل جوف الأرض . الشمس تستكن في جوف السماء . تعطى الأرض ظهرها ! . العوارض الحديدية الممتدة تحت السقف تحمله ، تستند على الأعمدة الضخمة على الجانبين . الأعشاش الصغيرة فوق الأعمدة كثيرة . تحت الألواح وبين العوارض أكثر . لكنها أعشاش عصافير ! على جانبي الرصيف عربات السكة الحديد المحملة والفارغة . المسطحة ينقلون فوقها الدبابات والمدافع ويمرح الجنود . المغلقة ينقلون بها الغلال . النصف مغلقة ينقلون عليها اجولة البصل والثوم والبطاطس وحزم القصب . أبواب مغلقة وأبواب مفتوحة . الظلام داخل العربات الفارغة والنور حولها . صوت وقع القدم داخل العربة عريض رنان . القدم مرهقة . صوت أصطدام قطرات البول بأرض العربة الحديدية يرتاح اليه . الآن لايشعر برغبة في التبول . الوقت مايزال مبكراً . لكن برد اليوم مختلف رغم أن الشتاء الطويل يأتي كل عام . إنه يعرف ذلك ولا يستغرب له . من سبق أن استغرب لدوران السنين ؟. لكن اليوم لا أحد يقابله . لاعمل . الرصيف خال . الأرصفة الأخرى على الجانبين تبدو كذلك . العصافير القليلة تطير وهو لا يصطاد العصافير . لابد أن يجد اليمام . الوقت لايزال مبكراً . يسمع خشخشة أوراق مهملة تطيرها الرياح فوق أرض الرصيف . لاينزل عينيه اللتين يمسح بهما السقف . أكثر من عشر سنوات يقتل اليمام . أكثر من عشر سنوات يرفع عينيه . خمس سنوات مؤامرة . لكن اليمام لن يستطيع أن يمضي فيها إلى الأبد . شيىء ما في أعماقه يهتف بذلك . اليوم صيد وفير . اليوم بداية أو نهاية . ربما بعده يحطم بندقيته . يعتزل . يلقي بحبات الرش الى المرحاض .

يسمع عواء الريح رغم أن الفضاء متسع ، والأرصفة مفتوحة الجوانب . يرى عربات السكة الحديد الفارغة والمحملة على جانبي الرصيف كطابوري حزن . من بينها يرى عربات أخرى على الأرصفة المجاورة . لايزال لايرى أحداً . ربما حين غمر النور المدينة تعلق الناس بخيوطه الواهنة وصعدوا جميعاً الى السماء وهو بعد نائم مع زوجته . علمته العربات الصمت . علمه شتاء الاسكندرية الخشوع . كيف يكون الفرح في شتاء دافىء !؟ .

○ ○ في الأيام الباردة كان يفتح صدره للهواء . يستقل الأوتوبيس من « القباري » إلى « محطة الرمل » . يبدأ سيراً سريعاً على الكورنيش . وحين يخلو الطريق يجري . الهواء يكاد يطيره الى الرصيف المقابل ، وهو يخب منتشيا كفرس امتلك زمام السهول الواسعة . ينظر الى البحر الهائج . يسمع صخب الموج فيسرع أكثر . يرتطم الموج بالصخور السوداء الضخمة الموازية لسور الكورنيش ويتجاوزها فيطوله أو ينسكب فوقه ، فينتابه خوف الطفل الصغير تلقى أمه عليه الماء البارد لأول مرة . يضحك لأنه لا يجد أحداً يتعلق بكتفيه ! . لا ينتقل الى الطوار الآخر إلا بعد أن يصل الى « سيدى جابر » . يعود أقل سرعة . غالباً ما يتهادى متسكعا . كثيراً ما يمر بيده على جدران المنازل الرطبة فيسقط بعض قشور من دهانها . أنفاسه تصير منتظمة . يرى المقاهي التي تزحم مقاعدها الطوار بالصيف مغلقة . يمر ببارات كثيرة وملاه فيتسلل اليه صوت موسيقى مختنقة . يرى زحاماً أمام مسارح الأفراح . لا ينقطع عن النظر الى الأزقة العديدة التي تفتح أفواهها في بلاهة على شارع الكورنيش وتمتد الى الجنوب مخترقة شارعي تانيس وطيبة . يلمح أحيانا فتاة مسرعة . أمرأة تتحدث الى شاب وتحاول أن تضم معطفها الذي يطيره الهواء . رأى مرة أربعة شبان مبعثري الشعر يرتدون سراويل ضيقة ، يحيطون بامرأة مقعية بين أرجلهم ، عارية تضم ساقيها الى صدرها وتلف ذراعيها حولهما وترتجف وتضغط أسنانها تكاد تأكلها . كان المكان حولهم خرابة

تفرقت فوقها الحجارة وأكوام القمامة . ماكاد يقترب منهم حتى ألتفت اليه الشبان الأربعة بلا مبالاة تشي باستغراب . أراد أن يقول شيئاً لكن عيونهم صارت شرسة . سمع صوت المرأة من بين سيقانهم مشروخا باكيا . قالت « امشي يابن الكلب » . وبدا أنه هو سبب محنتها . لم يفهم شيئاً فانصرف مكملا سيره . مرة أخرى تأخر في العودة حتى كاد الليل ينتصف . كان قد جلس كثيراً على الشاطىء البارد . لم يكن في الجو ريح ، ولم يكن الموج هائجاً . تنشق رائحة اليود وابتهج . فكر في السمكة التي فى بطنها خاتم سليمان . من يصطادها وكيف ستكون حياته ؟. وفي عودته لم يفكر في شيىء . وصل دون أن يدري الى كامب شيزار . بالقرب من كازينو اللؤلؤة الزرقاء شاهد امرأة تقف فوق الطوار المقابل وتمسك بيديها عمود النور وتضحك بصوت لا تسمعه الشقق التى يسير تحتها والمغلقة فصل الشتاء . كانت عارية أيضاً . بدت تحت الضوء الأصفر لامعة وشاحبة . جعلت فجأة تصرخ بكلمات بذيئة ويختلط صوتها بصوت الموسيقى المنبعثة من الملهي الذي يجلس أمام بابه رجل سمين جدا . فكر أن يعبر الشارع اليها . لكن البحر المظلم خلفها بدا له وحشا قديماً يتثاءب وهو يسمع صوت موجه الهادىء الوقور !. يخاف أم يشفق ؟. لم يعرف . ظلت تتلوى حول العمود وهو ينظر من الطور الآخر . تقدم . فتحت ذراعيها على اتساعهما وفاجأته .

ـــ تعال ياابن القحبة !. أخذوا هدومي وتركوني . وأنت ماذا ستأخذ ؟

وشخرت . كانت من الطوار الآخر تبدو جميلة وإن كانت منكوبة أهاجت أحزانه . حين أقترب رأى أن أسنانها ساقطة ، وشعرها أبيض أغلبه ، وثدييها طويلين ، وذراعيها كعودى جريد . تركها وعاد آخذاً طريقه يفكر لماذا يكون شتاء الاسكندرية قاسياً ؟. ويلاحقه صوت ضحكات الرجل السمين البشعة كأنما هى قادمة من تحت البحر ، فيشعر أنه أبله وبالبلاهة تنتظم الكون .

○ ○ ○

كان حين يصل الى محطة الرمل ينظر الى تمثال سعد زغلول . يتعجب من شاربه !. يترك ساحة التمثال الى موقف الأوتوبيسات خلف الموقف يرى بعض النائمين وقد تدثروا بقطع عريضة من الكرتون وكميات من القش أو الخيش . وكان كثيراً ما يتساءل كيف لا تطير ؟. ومن حول الجميع كانت تصعد رائحة البول والبراز الكثيفة . وتحت المظلة لا يجد إلا قليلين يقفون متباعدين متوحدين مع البرد .

كان ينزوي في ركن . يختار لنفسه مكانا بعيداً أيضاً وينتظر . ولا يدرى هل لأن الانسان حيوان مجنون لايمشي على طريق الا وغيرها ، أم لأنه بقدر ما يستسلم للملل يرغب في كسر نمط الحياة العادي ، أم لأسباب أخرى ، كان وهو تحت المظلة ، يراقب الزقاق القصير المجاور لمنشأة المعارف والمؤدي الى شارع سعد زغلول . الزقاق يواجهه من بعيد . ويتابع هو العدد القليل من المارة وهم يندفعون داخله أو منه . البعض يحمل شمسية . البعض يقفز قفزات واسعة فوق المياه المنسابة جوار الرصيف . وكثيراً ما أتت حافلته ولم يفطن . المندفعون الى شارع سعد زغلول يبتلعهم ظلام أو فم وحش واسع والقادمون لا يأتون الى المظلة . لايدخلون شارع الغرفة التجارية . لا يتجهون الى موقف الترام القريب . لا يصعدون الى السماء . يدخلون جميعاً الشارع الضيق المجاور للغرفة التجارية على يسار الزقاق . تكرر ذلك في كل ليلة .

أوشك شتاء أن ينصرم فغادر المظلة متجها الى هذا الشارع . لم يجد فيه غير بعض عربات يد مغطاه بالشمع الأبيض ومربوطة بحبال ولا يظهر ما تحمله . فيما بعد وفي وقت مبكر عن ذلك رأى فوق العربات تفاحا أحمر وأجهزة كهربائية صغيرة .

لم يجد في الشارع أحداً ممن دخلوه وهو تحت المظلة . وقف قليلاً فلم يأت

أحد من شارع سعد زغلول ! لم يفكر في شيء مخيف ً!. فكر أن الدنيا عاندته كثيراً ، وحين فتح باب خشبي صغير وخرج منه عجوز جعل يمشي مرتكنا على جدران المنازل ، لمح خلف الباب مقاعد ورجال وسحب دخان فدخل .

منذ تلك الليلة صار هذا البار قرار طقسه الشتوي على الكورنيش . وسرعان ماأقلع عن هذا الطقس . صار يخرج من منزله قاصداً البار . لم يندهش حين دخل أول مرة ، ولم يجد أحداً يبدو عليه أنه قادم قبله مباشرة . لم يفكر في أين يذهب الناس الذين يدخلون الشارع قادمين من الزقاق القصير . لاحظ أنه بعد دخوله لم يدخل البار أحد . لاحظ ذلك فيما بعد وحتى اليوم . كان الجالسون متبتلين حول الزجاجات القاتمة وأطباق الترمس والخس والجبن وقطع الخبز . وتحت سحائب دخان السجائر الأبيض والأزرق التي لا تلتصق بالسقف الملون ، ولا ترتاح على المناضد ، كان يسمع ثرثرة غير مفهومة . وجد نفسه يقف مرتبكاً ، فاتجه الى الجزء الداخلي من البار وجلس على منضدة بعيدة . أتاه الجرسون فصار أكثر ارتباكاً .

— بيرة .

قال بسرعة كقفزة الأرنب . لكن الجرسون الأريب انحنى حتى لايسمعه أحد .

— أحضر لك كأس أبيتان يدفئك .

كان بالفعل ينتفض . لم يفهم أن الجرسون أراد أن يعلمه أن الخمور أنواع ، هز رأسه موافقا . جرع كأس الابيتان بسرعة كما يشاهد في السينما حين يكون البطل مقدماً على جريمة . خرج بعد أن دفع الحساب الذي وجده قليلاً . لقد شرب خمسة كئوس . صار دافئاً حقاً حتى أن الامطار انقطعت . بلعت

البالوعات المياه الثقيلة . صارت الشوارع تبرق تحت الأضواء الشاحبة . ازدادت الناس وصارت تمشي في انتظام وتضحك وتدوى ضحكاتها في الفضاء الرحب وأستدار سعد زغلول فوق قاعدة التمثال ، وأعطى ظهرة للبحر ، وأنحنى فارداً جسمه وشاربه وذراعيه فوق المدينة وأبتسم ، فتعجب كيف يقولون أن السكر « بهدلة » !. وفي الأوتوبيس شغله سقوط قطرات من المياه من أسفل السقف ، فصار يتابعها قطرة قطرة منذ أن تظهر وتتبلّر وتكبر حتى تنفجر وتسقط على أرض الطرقة التي بين صفي المقاعد . أدرك فجأة أن المرارة التي كان يشعر بها فى حلقه ، كانت بسبب عدم تناوله شيئا من المزة . قرر أن لاينسى ذلك فيما بعد ..

○ ○ في منتصف المسافة المغطاة من الرصيف توقف . منذ بدأ الصيد في هذه المنطقة ، كان بعد أن يقطع الرصيف كله ، يعود في الاتجاه المعاكس على الرصيف المجاور . يصل الى نقطة البداية مرة أخرى حيث يتصل الرصيفان عبر مربع متسع من الأرض الخالية . في وسط هذا المربع يجلس عند كشك الشاى . تقدم له « قمر » السمراء ، الشاى الذى يحبه . يكون قد أصطاد بعضاً من اليمام . كثيراً ما اشترت منه يمامة أو اثنتين . واليوم يشعر بحاجة شديدة لشرب الشاى وهو بعد لم ينته من الرصيف . قال لابد أن الوقت يمر سريعاً . إنه يفحص السقف جيداً . يدرك أن المسافة التي قطعها صغيرة . يشاهد العصافير القليلة ولا يرى اليمام . لاتكف الريح عن الصخب . يتعجب من نفسه كيف يسير دائما رافعا البندقية وكأنه سيجد اليمام على غرة . أو ربما في كل وقت !. كيف أمضى السنين الطويلة رافعاً عينيه وبندقيته مستعداً للتصويب فى أى لحظة. ؟ أى يقين بالفوز ؟ ربما احساس بأن الفرصة لاتتكرر . يخفض البندقية ويمشى مهلا . صوت الأوراق التى تدحرجها الريح لايبتعد عنه . صوت اهتزاز

الواح الصاج المهترئة بالسقف . هذه الأرصفة قديمة جداً . الرصيف الذي يمشي فوقه الآن لاشك أقدمها . أنهم يسمونه رصيف « الباشا » . وهو الوحيد الذي ينتمي بإسمه الى شخص لعله أول من أقام الأرصفة . ان أحداً لايعرف من هو . لكن لابد أنه « باشا » فوق كل « الباشوات » . ربما يكون الخديوى إسماعيل نفسه الذى دخلت السكة الحديد في عهده . لكن هذا لا يعنيه كثيرا . أنه يقف بغتة . تماماً كمن تذكر شيئاً اجتهد في تذكره ولم يفلح ، وحين بدا أنه نسيه ، قفز إلى ذهنه فى وقت لم يستعد له إنه لم ير كشك الشاى ولا « قمر » السمراء صاحبته حين بدأ جولته منذ قليل . لم يمر بهما رغم أنهما في بداية الرصيف . وهو لايراهما الآن حقاً . الرصيف الممتد أمامه متسعاً خالياً ، يلتحم عند بدايته بالأرض المتسعة الخالية الآن من كل شيىء . بالأمس كانا موجودين . المرأة السمراء التي بدت توقفت عند سن الأربعين منذ خمسة عشر عاماً قالت له أمس فقط « لماذا تنظر اليّ » بعد خمس عشرة سنة أدركت أنه ينظر اليها أو أحست بنظرته . وبعد هذه السنين الطويلة أدرك أنه لايفهم معنى نظراته . ضحك . قالت .

— أحبك ياصياد اليمام . هل تعرف ؟
ضحك أكثر . قالت .
— الست متزوجاً ؟
استمر يضحك . قالت .
— انني جادة . آن الآوان أن تفسر لي نظراتك .
لم يستطع . قالت .
— كنت أنا أيضاً أنظر اليك لكنك لا ترى .
أحمر وجهه . كان بالفعل لايرى .
قالت .
— أنت لاترى إلا ماتريد . اليمام .

ووجدها جادة . تحرك في وجدانه قاع جبل . ماذا يقول . كيف يفسر نظراته التي لايفهمها . يذكر فقط أول مرة رآها وفكر أن المنطقة واسعة . والكشك صغير . رواده عمال وجنود يتغيرون . و « قمر » السمراء تقف وسط البرد تبدو لا تعرف من الدنيا إلا هذا المكان . لم يفكر أبعد من هذا . وظل ينظر اليها . سمراء ذات عينين عسليتين ، لم يعرف على طول السنين لها زوجاً أو ولداً . تعد الشاى بنفسها وتقدمه لزبائنها وتجمع النقود تضعها فوق صدرها دون أن تنظر اليها . وصدرها المرتفع في وجهه لا يثير فيه رغبة . لكنه يود لو نام فوقه . لو ارتاح . آه . الراحة على صدر امرأة خصبة . لكن كيف وهى بلا أصل أو فروع . الحنان الذى ضاع . القسوة المعلقة فوق رأسه ، تلهبه بسوطها الناري .

○ ○ ○

بعد الصراخ الكهفى جاء عمه . لقد مات أبوه وولولت أمه . عفرت وجهها بالتراب . حملت الطين فوق رأسها . لطخت به ثيابها ، ووقفت أمام الباب . قالوا جُنّت ، وأنها تمضى في رحلة مجهولة . رأى عمه يصنع الشاى مثل ابيه . يشربه مثله . وكذلك يدخن السجائر ويلفها . وسمعه كثيراً يقول لأمه « ليس لكما غير بيتي » .

— اتذكرين أول مرة قابلتك فيها ؟

تسكت . يعلو وجهها وجوم . يستطرد أبوه .

— لقد ظننتك جنيّة .

تعلو وجهها صفرة . يرى كأن دخانا أبيض شفيفاً يخرج من بين شفتيها . يربت أبوه على ظهرها . يضم رأسها الى صدره . يتمتم ببعض أدعية وآيات . يقبل رأس الأم .

— أنصرف بسلام !

يخاطب بوداعة شيئاً مجهولا . وسرعان ما يعود الدم الى وجه الأم . تنهض ثقيلة وهى النحيلة . تنشغل في شيء من أمور البيت تفعل ذلك شاردة العينين . بعد قليل تعود خفيفة الحركة .

— أنصرف والحمد لله ؟!

يقول الأب . تقول « انصرف والحمد لله » . يظل هو لايفهم . وحين فهم لم يعلق . لكنها بعد أن اختفت تساءل وهو يبكى « هل يمكن أن يتزوج انسى من جنى ؟ » . « وهل حقاً حين رأى أبوه أمه أول مرة كانت جالسة على حافة ترعة في منتصف الليل عارية ورجلاها في الماء ؟ » . لو كان هذا فأى عذاب عرفته أمه ولا يذاع . والأب الطيب يعتقد أنها جنية خرجت له من الماء .

وفي أقصى الصعيد حيث اخذهما عمه قال .

— نذهب الى أسوان .

لم ترد . كانت الغشية تأخذها كثيراً .

— هناك مشروع السد والعمل كثير .

لم ترد . لاحظ كثيراً ضيق عمه الذي يقطع الأحجار من الجبل . وكانت أمه تنظر اليه كشيىء تراه لأول مرة ، أو لن تراه الى الأبد ، فعرف انها لاتريده أن يتركها لكن الرحيل ظل يراوده .

صار عمه كثير الشجار مع زوجته . يضرب أطفاله بقسوة . ثم طرد الزوجة والأطفال ، وقال له أن يصحبهم الى أهل زوجته في قرية أبيس بأقصى الشمال ، فأذعن . لكنه اركبهم القطار وعاد من فوره ، لأنه كان قد رأى أمه تنظر الى عمه نظرة طالت أكثر مما ينبغي . فاجأه عمه .

— اختر لك غرفة ونم بها . لقد صرت رجلا .

تقرأ هذه الصفحة بعد صـ ٢٣

عبقها الضراط ، وفي المقاهي الرخيصة السوداء ، حيث تختزل الرجولة في ضربات اكف حامية فوق المناضد ، بعد هزائم وأنتصارات في الدومينو والورق ينسى أبناء الشمال الاسكندرية . يعطونها ظهورهم ويفتحون عيونهم على مدن جديدة . والاسكندرية الصغيرة الطويلة ، ممتدة كامرأة نائمة ممشوقة لينة القوام ، لها عجيزة مترهلة كثيفة الشعر والقمل . تعطي الاسكندرية أبناء الجنوب جنوبها حيث العفن في الشوارع المتربة الضيقة الموحلة والبيوت المكومة فوق بعضها . يرحل أبناء الشمال بعد أن يمصون لبن الضرع القوى ناصع الحمرة والبياض . تظل عجيزة الاسكندرية مسك الختام لابناء الجنوب . ليس القادم فوق السفينة كالقادم فوق أظافره . لافته معلقة فوق المدينة .

فتحت له الاسكندرية الدافئة جناحيها . ضمت عليه ريشها . لكن بعد أن بيته في أفقر أحيائها .

كان بحاجة الى أن يشرب من هواء عذب . يمشي تحت شمس هادئة . يخرج الشوك من لحمه . يعصر قلبه بماء زهر الريحان . يجلو عينيه بضوء قمر . ولو كان يستطيع العيش تحت ماء البحر لفعل . فالأضواء التي تنسكب من المصابيح البيضاء فوق الموج الأسود بالليل . وتنعكس بهية كخيوط الذهب ، لابد تجعل الحياة تحت الماء مليئة بالمرح . والهواء النقى القادم من البحر الذي يلطف غلة القيظ ، لابد أنفاس قوم طيبين . وأسفل الماء لن يبحث عن أمه . سيدلونه عليها إن كانت هناك . أو يعيدونه إلى الشاطىء ويقولون كيف يجدها بسلام . لم يكن سهلاً أن ينسى ، ولكن كان عليه أن يفعل . وقد تمر السنون فتأسى الجراح كما يقال . لكن كيف لمن طاف الجبال والوديان . الحقول والترع . المدن والقرى . النجوع والكفور . والمحطات الحزينة لاتقف فوقها القطارات إلا لتسير وتتركها في أهمال .

قالها بجفاء . لم يفهم عمه الفقير أنه لاينام مع امه إلا لأنه اعتاد ذلك ، فسكن المصلحة غرفة واحدة ، وصالة صغيرة تمتلىء في العادة بالاخشاب للنيران ، وصفائح كثيرة لا معنى لها ، وعشة أمام البيت أو فوقه للدجاج تأكله العرس ويسرقه اتمس . وبالليل نهض معتقداً أن كابوسا هاجم أمه التي اقلقه صوتها المختنق المغمغم . فتح غرفتها فرآها تقف مستندة على الجدار مذعورة ، وعمه أمامها متحفزا شرساً .

ـــ لقد سمعتها فسبقتك . الجنى ركبها .

كان أبوه بعد أن تفيق أمه من غشيتها . يضحك . يقول « انهم في شوق اليك . اخوتك يحبونك . اعانني الله عليهم » وكان هو لايعلق . الآن لا يصدق . عاد وخرج عمه خلفه . قال لها في الصباح .

ـــ يا أم نرحل . انني رجل ومتعلم وفي السد أعمل .

بكت وقالت .

ـــ أبوك يناديني . أنتظر حتى اموت .

كانت المرأة الحلوة قد صارت كشعاع شمس شتوية إذا لامس الأرض طوته الظلال . وبالليل صرخت صراخاً ضارياً كأنها أسد . ركل بابها بقدمه فرأى عمه يضربها بوحشية . هجم عليه لكن عمه كان قوياً فطرحه فوق الأرض . رأى عيني أمه وهو منطرح . كانت بعيدة عنه كثيراً وكان بعيداً عنها . انحنى عمه ينهضه ويطيب خاطره .

ـــ لا تؤاخذني ياولدي . ماضربتها إلا علاجاً .

فى غرفته التاع . قرر الرحيل فى الصباح أو الموت وفى الصباح كانت المدن والقرى قد فتحت أبوابها الأمامية للغرباء . المساكين الذين تفتح لهم ق

المساء أبوابها الخلفية !

ــ أين ذهبت ؟

قال متحفزا فقال عمه بلا مبالاة .

ــ لابد أنها عادت اليهم . أبوك أخبرني أنها ستهرب يوماً ما .

قال مستنكراً .

ــ أين ؟

ــ تحت الأرض طبعاً !

قال العم الذي كان جالساً فوق الأرض يأكل أفطاره . كانت هناك عصا غليظة في ركن من الباحة التي تتوسط حجرات الدار . اتجه اليها بهدوء . وبهدوء عاد بها نحو عمه الذي جعل ينظر اليه مبتسماً . هل يمكن أن ينتظر أحد الموت ؟ . لماذا لم ينهض عمه ويهاجمه . ؟ أرتفعت العصا وأرتفع معها . سقطت فوق رأس عمه فتبعثر في كل مكان دما ومخا وعظاما مهشمة ، وخرج من صدره هم . أحس أنه خفيف يستطيع الطيران في الفضاء مع الطير والسحاب . ما كاد يغادر الدرا حتى شدته الأرض . البيوت أمام عينيه منخفضة سوداء الجبل الذي يحضنها يبدو راكزاً فوقها . الشمس الغادرة كانت عالية رغم الصباح تنظر اليه . كانت أمامه رحلة طويلة من الضنى والشوق .

○ ○ ○

○○ لم يقل شيئا لقمر أو لغير قمر. بالنهار يصطاد اليمام وبالليل لا يحكي حكاياته لأحد . ليته عرف كيف يفسر لها بالأمس نظراته . لكنها فيما بدا كانت عابثة . لقد سألته .

ــ هل تعرف كم يمامة أصطدتها ؟

لم يرد . تعجب من الهزل الذي يبدو جاداً . قالت .

ــ إني أعرف كم زبونا شرب عندي شايا .

قال .

ــ كم ؟

قالت .

ــ بالضبط خمسة عشر الف مليون زبون .

ضحك . قالت .

ــ ترى كم يكونون ياصياد اليمام ؟

ولما طالت ضحكته قالت .

ــ أنا لم يشرب عندي أحد . يأتون ويذهبون . اكسب فاشترى شايا وسكرا أبيعه لاعود اشترى وأبيع .

قال

ــ لا مكسب بالمرة .

قالت

ــ هل كسبت أنت شيئا ؟ لا أحد يكسب الآن .

واليوم ابتلعت الأرض الكشك وقمر. أو طارا معا. أما زالت الأرض سحراً والفضاء خيالاً ؟ . ما معنى مضى السنين إذن ؟ . أم لعله لم يعد يرى جيداً ؟ . إن الذي يرى العصافير لا يعمى عن كشك راسخ وامرأة مثل قمر .

○○ تفتح الاسكندرية عينيها لأبناء الجنوب . تفتح الاسكندرية فخذيها لأبناء الشمال . هؤلاء يأتون عبر البحر ويعودون . يلقون أحمالهم من التعب أو الفشل أو الجنون . يروون غلة الشبق المكتوم بإرادة فوق موج البحر وظلال الألوان السابحة تحت الماء . يسبقون الهواء ويغتسلون بالمطر . وأولئك يبدأون رحلة الأحمال . يأتون عبر جسور وقضبان . يضحك بالليل أبناء الشمال في الطرقات المغسولة فيوقظون منتظري الصباح ! . يضحك أبناء الجنوب في الحجرات الضيقة

من منطقة « القباري » التي أستقر فيها في حارة في حى « الكرنتينة » . ومن غرفته الوحيدة فوق سطح البيت المكون من طابقين ، والمزدحم بالغرف والسكان ، المزدحمون بالضحك والشجار ، تعود في السنوات الأول أن يقطع في أماسى الصيف رحلة قصيرة الى شاطىء المكس . هناك كان يغسل نفسه من كل هم . يترك عينيه تتابعان ضوء الفنار الذي يدور فوق الماء باتساع . يبرق له قوس بعيد من الماء . ساحر تقفز فوقه أسماك متلألئة ويختفي مع دورات الضوء . يسمع خربشات الأصداف والقواقع وأبو جلمبو في الصخور الخشنية الملاصقة للشاطىء . يفتح فمه بجوع فزع ليشرب الهواء كله . ينسى أن في الدنيا بشراً لهم القسمة في كل شيء . يعود قبل أن ينتصف الليل . في الترام العجوز لايجد إلا صبيا عاري الساقين ينام على المقعد وجواره كرتونة صغيرة بها علب كبريت وأمشاط شعر لم تنفد ، وشرطي أكثر استغراقا في النوم . وربما رجلا أو اثنين ينظران الى بعضهما في العادة رغم تغيرها ! والمحصل يغالب النعاس فيشعل سيجارة ويجلس دون أن يتقاضى أجرة من أحد . فوق السطح أمام غرفته يمضي جزءا آخر من الليل يتابع القمر أو يحصى النجوم ، حتى تقف سحب الخريف فوق البيوت فيستعد لجولات الشتاء شرقي المدينة أو للبار فيما بعد .

كان قد حصل على عمل في مكابس القطن بحى « كفر عشري » . صار « قبانيا » يزن البالات . وكان يبذل جهدا كبيرا في أن يمضي أيامه في صمت . يطرد كل هاجس ألم . كان يعرف أنه لو تكلم . سيحكي ويشكو والوجوه حوله متعبة . لكنه كثيرا ما فكر في سكن المصلحة الذي كان سينتقل اليه أبوه . أين هو في الاسكندرية ؟ كثيرا ما قرر أن يسأل عنه . كان يريد أن يرى « عمال الدريسة » في هذه المدينة . وكثيرا ما ضحك حين أمسك نفسه متلبساً بالرغبة في أن يرى اكتافهم .

ـــ لماذا لكل منكم كتف منخفضة عن الأخرى ؟

كان بعد في التاسعة . قال أبوه .

ـــ لأننا نحمل الفلنكات والقضبان على ناحية واحدة .

لم يفهم .

ـــ ولماذا لاتحملون على الناحية الأخرى ؟ .

ضحك الأب وجلجلت ضحكته . قال .

ـــ ذكرتني بالقرية وماذا يفعلون بالحمار إذا عرج باحدى سيقانه . انهم يصيبون ساقه المجاورة فينتظم سيره ويسهل بيعه .

وعاد يضحك وضحكت الأم وضحك هو وقال ..

ـــ يغشون الحمار !؟

قال الأب .

ـــ أجل يغشون الحمار .

لكنه لم ينقطع عن النظر إلى كتف أبيه وأكتاف زملائه ، حتى قال له أبوه مرة أخرى .

ـــ من نوادر العمل في السكة الحديد أن أول عامل قال للذي بعده ، إن العمر طويل ، والسكة الحديد لن تنتهي ، لذلك نخصص كتفا واحدة للحمل عليها نصف العمر ، والأخرى للنصف الثاني ، ومشينا جميعاً على النصيحة .

وضحك الأب أيضاً ، وضحكت الأم ، لكنه لم يضحك لأنه كان يرى أكثر العمال كباراً في السن ، وكان يفهم أن الموت لن ينتظر حتى تتساوى الكتفان .

قال الأب مكملاً .

ـــ لكن مع العادة تموت الكتف ويسهل الحمل عليها فننسى الأخرى .

ظلت الصورة تعود اليه . وفكرة أن يرى عمال الدريسة تراوده . لكنها أبتعدت أيضا كثيرا فيما بعد ، لأنه سواء في العمل أو في الحي ، كان يسمع حكايات كثيرة عن الآلاف الذين يأتون الاسكندرية كل عام من أقصى الصعيد ويراهم كل يوم . يقطعون رحلة شاقة على الأقدام ، ويسمع أبناء الاسكندرية يتندرون عليهم ، ويقولون أنهم جاءوا « يعدون الفلنكات » . وهو يعرف أنها رحلة قاسية ، مليئة بالجوع والعرى والتسول في البلاد والقرى . تبدأ حين يفقد الانسان كل شيء ماعدا قوة في القدمين الحافيتين وأمل أبتر . ففي الاسكندرية يستطيع هذا القادم من الأعالي أن يكون ماسح أحذية . ثم بائعا للكحك أو « البوظة » التي اختفت في السنوات الأخيرة بعد أن أصبح شاربوها يركبون السيارات ويشترون الويسكي من المطارات . ثم بائعا للخضار . والبعض ينجح في أن تكون له دكانة صغيرة . أو يصبح تاجرا في الوكالة له شأن . ومنهم أيضا من يبدأ عاملا في البناء يصعد أعلى الأدوار حاملا « قصعة » الخرسانة على كتفه ولأن بأسفل القصعة تجويف مقعر ، فانها حين ترفع على الكتف تضغط عليها بثقل مافيها ، تتنفس الكتف داخل هذا التجويف وترتفع شيئا فشيئا ، وسرعان ما يظهر فوقها نتوء محدب متجمد من اللحم والدم . يساعد هذا النتوء في حمل القصعة ، دون أن يسندها العامل بيده ، أو يخشى سقوطها . يصعد بها السلالم الخشبية وهو يغني . لقد صارت مع الكتف مثل العاشق والمعشوق ! . ومن بين هؤلاء العمال من ينجح في أن يصبح مقاولا لأعمال البناء ، ومن يظل بقية عمره يحمل الخرسان ، وقبل أن يموت يعود يمسح الأحذية ويمشي حافيا . لكنه كان يعرف أن رحلة هذه الآلاف لا تطول غير أسابيع قليلة . رحلته كانت خمس سنوات . لم يكن هبوطه من أعلى الى اسفل . كان في كل الاتجاهات . [illegible] تكون رحلته سهلة من يبحث عن أنسية وديعة ، قالوا أنها من الجن ، لأنها كانت رائعة الجمال . وكان يقول ليس للجن أن يتسل بشرا وادعين . وليس للجن جمالها . ولا صوت له ولا دموع . لكنه وقد وصل الاسكندرية ولم يجدها قرر أن يحبها ويبق . انفتحت المدينة الهادئة أمام عينيه ، فكره الأرض التي وراءه ، وأدرك أنه لن يستطيع عبور

البحر ! .

المدينة التي تقع على الساحل الشمالي لمصر جميلة كما قال المدرس . تذكرها كتب التاريخ والجغرافيا أكثر من غيرها . لأسمها جرس ورسم جميلان ، وهي لابد تجلي النفوس من أدرانها . ولم يعرف صياد اليمام إلا متأخرا جدا ، ولعله لم يعرف حتى اليوم ، أنه وصل في زمن للحزن فيه بساط طائر وبساط مفروش وبين البساطين مقاعد كثيرة خالية ..

○○ لم يجد غير أن يستدير ويكمل سيره . لعله يعرف شيئا عن الكشك وقمر حين يقابل الشرطي أو غيره . والآن يدور حول نفسه أكثر من مرة رافعاً البندقية متطلعا الى الأعالي . ولا يدري أن الجزء المغطى من الرصيف قد أنتهى منذ لحظات . يستمر في السير حينا بأستقامة . ينظر الى « رصيف البصل » الى يمينه . لايرى غير أجولة قليلة . العصافير المتناثرة تطير فوقها وحولها . ينظر الى اليسار . صف العربات الفارغة يحجب ما خلفه . يحاول النظر من بينها . لايرى غير أرض ممتدة تتلوى فوقها قضبان سوداء وعوارض أكثر سوادا تحتها ومرح هواء . يتابع صف العربات بعينيه يجده قصيرا . حين ينتهي يستطيع أن يرى الكشك الخرساني البعيد الذي يجلس فيه الشرطي غريب الأطوار .

○ ○ ○

حين أشار اليه ذهب . لم يلفت انتباهه من قبل . لا هو ولا الكشك الصغير . إنه معنى باليمام المراوغ . وكشك ضيق منخفض ملتصق بالسور الذي يفصل المنطقة عن المدينة فلا يكاد يبين ، كيف يلفت أنتباهه . ؟ كيف يفكر أن بداخله أحدا حتى لو كان شرطيا يرتدي بذة ذات أزرار نحاسية تلمع تحت ضوء الشمس . لكنه أتجه اليه . متى كان ذلك ؟ لا يذكر بالضبط . لكن ليس

لأكثر من أسابيع مضت . ولم يعرف هل استجاب لأن الشرطي يستطيع منعه من دخول المنطقة ، أم لأنه لا يتأخر في طلب لاحد ، أو لأن قدميه تستطيعان حمله . ما يدركه أنه صار في الفترة الأخيرة مطاوعا لكل شيء ولا يعاند غير زوجته واليمام ، وهو وإن كان يود لو طاوع زوجته ، فهو لا يستطيع أن يقلع عن صيد اليمام ، أو ينهزم للمؤامرة . سينتظر حتى تفرغ الحكاية ويعود اليمام ولو مرة واحدة !.

فاجأة الشرطي بابتسامة قائلا .

— ألا تعرفني ؟

ومد الشرطي يده فصافحه مرتبكاً ينظر الى وجهه الأحمر ، وشعر رأسه الأبيض تحت البيرية الأصفر ، وعينيه الزرقاوين الصغيرتين . كان الشرطي نحيلا متوسط الطول ركن بندقيته على جانب من الكشك من الداخل .

— معذرة .

أحضر الشرطي من خلف الكشك صندوقا خشبيا صغيراً . وضعه أمامه مشيراً الى صياد اليمام أن يجلس بينما جلس هو داخل الكشك الضيق .

— أنا منذ أكثر من خمسة عشر عاماً أجلس في الكشك أراقبك وأنت تصطاد اليمام . ألم ترني ؟

أرتبك أكثر .

— معذرة .

أبتسم الشرطي كثير .

— ربما لانك تنظر دائما الى السماء .

وضحك . فكر صياد اليمام أن الشرطي لديه حديث طويل ، وعليه أن يهيىء نفسه . لكن كيف يراقبه هذه السنين ولا يكلمه إلا اليوم ؟ بالرجل مسّ لا محالة .

— معذرة . غالبا لا أرى السماء . أرى الأسقف .

— أنا أذكر أول مرة رأيتك فيها . هل تذكر كيف كنت ؟

ابتسم صياد اليمام قليلاً .

— ربما . بالضبط لا .

تابع الشرطي مزهوا فرحان فجأة .

— كنت ترتدي سروالا نصفا وصندلا بنيا . بندقيتك كانت أصغر . شعرك الأبيض هذا كان أصفر . عيناك كما هما خضراوان ، وانطلق الشرطي في الضحك بينما حاول صياد اليمام أن يتذكر هل كان ذلك حقيقة أم لا . إنه لا يتذكر ارتدائه لسروال نصف منذ أنهى المرحلة الابتدائية . ولا أنه غير بندقيته . لم يشأ أن يأخذ الأمر بجدية . فكر أن يتحين الفرصة لينصرف . قال .

— معذرة . أنا لا أتذكر شيئا الآن .

قدم له الشرطي سيجارة . ود أن يعتذر عنها . فاجأه الشرطي .

— أرجوك لا تحاول أن تنهض بسرعة .

أخذ السيجارة مرتبكاً . حاول أن يقول شيئا . أى شيء ضحك الشرطي بمرح زائد .

— أنا كنت كما أنا ارتدي ملابس الشرطة !

ضحك صياد اليمام هذه المرة . وتابع الشرطي .

— لكنك كنت قوياً . لقد رأيتك مرة ترفع عربة سكة حديد بظهرك .

ارغم صياد اليمام على الضحك اكثر . قال مندهشاً .

— أنا !؟

— أجل حاول أن تتذكر . بعد النكسة بأيام حين كان سلاح كثير يأتي من الميناء وتحمله القطارات ، خرجت مرة عربة بضاعة عن القضيب عطلت الطريق ، ولما تأخر وصول الونش حاول العمال رفعها ، فدخلت أنت بينهم ، ورفعتها بظهرك وحدك من الامام ، ووضعتها على القضيبين ألا تذكر ؟ لقد صفقوا لك ، لأن قطار سلاح كان على نفس الطريق خلف العربة ، وخلفه قطارات أخرى ، ولم

يكن سهلا عمل مناورات وتحويلها جميعا .

حاول صياد اليمام بصدق أن يتذكر شيئا مما يقوله الرجل . إنه يتذكر قطارات السلاح الكثيرة بعد النكسة لكنه لا يتذكر الواقعة . كان فقط كثيرا ما يمرح مع الجنود ويشير اليهم مشجعا . وكان حديث عهد بالمنطقة لم يمض عليه بها ثلاث سنين ! . قال الشرطي .

— تعرف انني ظننتك « الجبار » ولكني قلت الجبار كان أسود ولم يكن يصطاد اليمام ..

لم يفهم كيف يقول الشرطي « الجبار »مفترضا أنه يعرفه . لكن الشرطي قال .

— أنت لم تعرف الجبار .. لقد اختفى بعد الثورة .

ترك صياد اليمام نفسه يسمع . لم يشأ أن يعلق بشيء . فكر أن يشرد بذهنه . لكنه حين شرد تذكر سؤال « قمر » عن عدد اليمام الذي اصطاده فأحس بالضيق . قال الشرطي .

— كان « الجبار » قويا ضخما ويأتي ليدفع العربات بيديه ، أو يحمل نصفها على ظهره ويسير بها والجنود الانجليز يتفرجون عليه ، ويضحكون ويعطونه نقوداً . كان يكسب . وذات مرة راهنهم بأنه يستطيع شد العربة بعضوه . أجل . لا تندهش . وطلب منهم جنيه استرليني لو نجح ، وإذا لم ينجح يضربه عشرة جنود على قفاه .. ونجح . ربط في عضوه طرف حبل ، وربط الثاني في العربة ، وجرها كأنه قطار . أخذ الجنيه الاسترليني ولم يعرف أحد لماذا أراده كذلك . لكن قامت الثورة وأختفى الانجليز . انقطع الجبار .

كان ظهر صياد اليمام الى المنطقة . وجهه في وجه الشرطي . خلف الشرطي

جدار الكشك . على يمين الكشك ويساره وخلفه الجدار العالي الذي يفصل المنطقة عن المدينة . الكشك قديم . الجدار أكثر قدما . سقط ملاطه وبانت أحجاره الضخمة التي عشش في شقوقها العنكبوت .. كان صياد اليمام يتابع مسارات الشقوق بعينيه حين هزه الشرطي قائلا .

— طيب . هل تذكر الطفل الذي كان معك . ؟

— طبعا لا أذكر .

قال صياد اليمام بفتور وراغبا في الانصراف . قال الشرطي .

— أنا أذكر . وأذكرك أيضا أنه مات .

أبتسم صياد اليمام ساخرا !

— ما أذكره أنه كان معي صديق فقط .

— أنا رأيت زميلك هذا . إنه لم يستمر طويلا . أين ذهب ؟ .

— موجود . انقطع عن الصيد هنا .

لم يشأ أن يقل شيئا غير ذلك عن زميله . قرر أن ينهض لكن الجدار القديم العالي بدا يتشقق فجأة ، وتخرج منه رؤوس أفاع ذات السنة عديدة ، تفح فحيحاأشبه بصوت الريح الامشيريه . اخفض رأسه واغمض عينيه . أخرج علبة سجائره وأشعل احداها ناسيا الشرطي الذي مد يده واخذ سيجارة لنفسه . قال صياد اليمام .

— معذرة .

قال الشرطي .

— نحن أصدقاء وأن لم نتحدث قبل اليوم . كانت حادثة بشعة حقا ، وكان الطفل جميلا .

كاد الجدار القديم مستويا وارتفع حتى بدا سيصطدم في السماء يبعثرها .

— لقد جرى ليحضر يمامة سقطت بين القضبان فدهمه قطار سريع . أنا رأيت

ذلك ولم اتكلم ..

ضحك صياد اليمام ، وأحس أنه يغتصب الضحكة . قال
ـــ أنا لا أذكر ذلك البتة .
تراجع الشرطي بظهره . أشعل السيجارة . انحنى الجدار القديم العالي فوق صياد اليمام ، وحجب ضوء الشمس وقمر الليل !
ـــ أنا لا أنس ذلك القطار الملعون . لقد سبق وداس عجوزا مسكينة كانت تبيع الحلوى للعمال . حفرت رقمه على جدران الكشك الثلاثة . انظر .

رأى صياد اليمام رقماً محفوراً . بدا الشرطي في عيني صياد اليمام ابله حقا ، لم يعرف أنه بدا في عيني الشرطي مسكينا .
ـــ ا أؤمن بالقضاء والقدر . أنت تركت الطفل ميتا ومشيت تصطاد اليمام .

صار الجدار سردابا طويلا متعرجاً ، يصفر حينا بوميض مجهول ، ثم يعود يظلم . وصياد اليمام يسمع صوت الشرطي من بعيد ، وهو يسقط في نهاية السرداب في بئر ساحقة ، بينما أنفاسه تصعد الى أعلى . قال كأنه يهمس لنفسه .
ـــ هذا غريب حقاً !
أرتفع صوت الشرطي .
ـــ ليس غريبا ، يحدث مثله كل يوم ـــ ووكزه في كتفه ـــ لا تحزن . حاول أن تتذكر . كان ذلك منذ سبع سنين وأربعة عشر يوما ـــ ونظر الى ساعته ـــ وساعتين فقط .
ـــ ....
ـــ آخر النهار جاءت امرأة تولول ومعها بعض رجال . أخبرتهم عن الواقعة وأين يجدوا جثة الطفل . ألم يقولوا لك ؟
ـــ ......

ـــ لكنك جئت في اليوم التالي . رأيتك تضع المخلاة على الرصيف وتدخل احدى العربات ، وكنت أنا عائداً الى البيت . سرقت يمامة واعطيتها لابني . كذبت وقلت أنها هدية منك . صار يحبك ويحلم أن يكون صيادا ، لكنه صار عطشجيا يسافر مع القطارات ولا أراه .
ـــ ......
لم يكن صياد اليمام يسمع . أنصرف دون كلمة ، ومشى الى البيت شاعراً بأنه ما يزال يسقط في البئر العميق . ما كاد يدخل ويضع البندقية والمخلاة الفارغة حتى خرج . قالت زوجته .
ـــ ألا تتوجب عليك الراحة الآن ؟
كاد يصفعها . إنها تحطم التياعه بهدوئها . آه . هى حقاً بلسم للأسى ، لكنه يريد الإنفجار .

○ ○ ○

كانت الاسكندرية في تلك الليلة مدينة مظلمة ، أقتربت فيها السحب السوداء من الأرض . لماذا لا تكون الأرض أرضا والسماء سماء ؟ . ظل يسقط في البئر ، وكان القرار البار . قال الجرسون الذي رآه حزيناً .
ـــ هل ستسألني عن مصطفى ؟ . حاول أن تنسى . لا يدخل هذا البار أحد إلا وضحك .

وصار الجرسون يضحك .
ـــ هل ستعود الى الصمت من جديد ؟ لقد ظللت سنينا طويلة تجلس وحدك لا تحدث أحداً .
حاول أن يقول شيئا لكن الجرسون كان غاضبا بالفعل ويقول .
ـــ هل تصدق أنه يمكن أن تقوم صداقة هنا . انهم يأتون أثنين وثلاثة وعشرة ويخرجون واحدا فواحد .

علق بصره متطلعاً الى الجرسون الذي بدا له لايفهم شيئا . أرتبك الجرسون فغير الحديث .

— ما رأيك في الفودكا ؟ . أول مرة تدخل البار . هأ هأ هأ . اختلفت الحكومة مع الأمريكان فقطعت البيبسي والكولا . الآن اختلفت مع السوفييتي . أكيد ستقطع الفودكا . هيء هيء هيء . مع أنها كانت دائما شحيحة . أي صداقه كانت دون الفودكا ؟!

وأنصرف الجرسون ضاحكاً فضحك صياد اليمام .

○○ بالليل كان الشرطي يضحك محتلا وجه زوجته الجميل . لكنه لم يستطع أن يمتنع عن لقائه مرة ثانية . ظل يلقاه بعد ذلك وحتى أمس . وسوف يلقاه اليوم بعد أن ينتهي من هذا الرصيف ، وسيسأله عن « قمر » . لكن صف العربات لم ينته بعد ولايستطيع أن يراه من بينها . إنّ وخزات البول المتجمع في المثانة فجأة تضيق أنفاسه . سيدخل هذه العربة المفتوحة ليفرغه . وبعد أن ينتهي الرصيف سيذهب اليه دون أن يدعوه . لقد لاحظ أنه لم يذهب اليه من قبل إلا إذا ناداه أو أشار اليه . وإنه حين يمر من بعيد رافعا ذراعه بالتحية ، كان الشرطي يرفع ذراعه أيضا ولا يناديه . يبدو كأن كليهما يعرف أنه لا رغبة عند الآخر في الحديث أو اللقاء . وحين يذهب اليه بنفسه ، أو بعد أن يشير اليه الشرطي من بعيد ، كان هذا ينهض ويقبل عليه هاشا يأخذه من يده ليجلسه في محبة بالغة ، ويبدو أن كليهما في حاجة الى أن يستمع الى الآخر ويلقاه .

لم يعرف صياد اليمام ، لماذا كلما فكر في الابتعاد عن الشرطي أو تجاهله ، دفعته قدماه اليه . وكان كلما عاد الى منزله ، نظر الى وجه ابنه الصغير ، الذي يطلب منه كل يوم أن يصحبه ليصطاد وتنهره زوجته . لكن الشرطي لم يعد إلى حديثه الأول . لم يذكر بعد ذلك شيئا عن الطفل الذي قال أنه مات تحت

عجلات القطار . طال حديثه عن المنطقة ، وخاصة عن اللصوص . قال أن المنطقة خالية منهم تقريبا . وبرغم وجود فتحات كثيرة في الأسوار المحيطة ، فإنها ليست من صنع اللصوص . وصنعها في الغالب أشخاص يريدون اختصار الطريق ، وليس لديهم صبر للذهاب حتى البوابات الرئيسية ليخرجوا منها . وأنه لايوجد بالمنطقة غير بعض « المساكين » يترزقون من جمع الغلال الساقطة على الأرصفة ، مثل « هند » وأمها . وهؤلاء تتركهم الشرطة ، كما تترك عمال الدريسة وهم يعودون من العمل ، حاملين أخشابا وألواح صاج قديمة . فهم يخبزون بالخشب ويشعلونه للتدفئة ، يقيمون بألواح الصاج عششا للدجاج .

— أظن أن سكن المصلحة قريب من هنا .

— على بعد أمتار قليلة . هل تعرف أحدا هناك ؟

— لا . لا . إنني كثيرا ما أراهم يعملون ولا أعرف أين يسكنون .

كان صياد اليمام صادقا . لقد خرج السؤال دون أن يقصده . مضت سنون كثيرة على اليوم الذي أهتم فيه مرة . ثم إنه رأى أعمالا ورجالا أتعب . والاسكندرية ليست سببا في موت أبيه أو ضياع أمه . وهي لم تقسو عليه . إنه يعيش في قاعها ولم يدخلها . وهو لم يعرفها ولم تعرفه . يرى كالسائح ويسمع كالغريب . وقد جاء لايشعر حتى برغبة في الأكل ، رغم أن يوما كاملا قد يمر دون أن يأكل غير مرة واحدة . وفوجيء بالشرطي يقول .

— غريب أنك تصطاد هنا منذ أكثر من خمس عشرة سنة ولا تعرف المنطقة .

— انني أعرف الأرصفة وهذا يكفي .

وضحكا . فكر الشرطي قليلا وقال .

— حقا . هل تعرف اني مثلك لا أعرف غير هذا الكشك ؟ .

استغرب صياد اليمام .

— ماذا تقصد ؟

— أنت تعرف عملك . وأنا أعرف عملي . وعملي أن أجلس في الكشك أراقب

ما يحدث أمامي .

وصمت قليلا وقال

ـ هل تعرف أن المساحة التي اراقبها تقل عاما بعد عام . ؟

ـ هل تعني أن عدد الشرطة يزداد ؟ .

أبتسم الشرطي .

ـ لا . لست ذكيا ياصياد . قليلون يقبلون على الشرطة الآن .

تحير صياد اليمام قليلا لكنه وجد الحديث ممتعاً .

ـ إذن لندرة اللصوص . ؟

ـ لا . ـ وضحك الشرطي ـ إن نظري يضعف مع الأيام !

ابتسم صياد اليمام وازداد الشرطي ضحكا وقال ..

ـ أرغب في الاستقالة .

ـ لهذا السبب . ؟

ـ إنها مهنة لا معنى لها .

فكر صياد اليمام قليلا . كثيرا ما يُعاد الحديث ولا يعود الزمن . لقد حدثه صديقه الذي علمه الصيد ، عن شيىء مثل هذا من قبل ، لكن أين هو الآن ؟ لم يشأ أن يفكر أكثر من ذلك . لكنه تساءل راغما ترى ماذا سيقول الشرطي أيضا؟ .

ـ في منطقة كهذه واسعة مكشوفة لا يسرق أحد . هل سمعت عن أحد سرق قطارا ، أو جر عربة سكة حديد الى المدينة . لماذا اجلس أنا أذن هنا . ؟

ابتسم صياد اليمام . قال

ـ لكنك تستطيع أن تترك الكشك وتجلس مع أى أحد ..

ـ ومن يؤدي عملي ؟ .

ارتبك صياد اليمام . لم يستطع أن يجيب . قال الشرطي .

ـ خمسة وثلاثين عاماً أمضيتها داخل الكشك . حتى الشاى أصنعه بنفسي .

كان بالفعل لديه موقد كحولي صغير يظهر تحت مقعده . واستطرد

ـ هل تشرب شايا . ؟

ـ شربت قبل أن أتيك .

ـ ها . عند « قمر » .

وضحك .

ـ هل تعرفها . ؟

ـ زملائي يتحدثون عنها كثيرا . اكثرهم حاول الزواج منها ويئست هل تعرف أني لم أرها قط ؟

○ ○ ○

بعد قليل سيرى الكشك الخرساني والشرطي وسيذهب اليه . ترى هل سيخبره عنها ؟ . هل عرف عنها شيئا من زملائه .

تحط أمامه جماعة قليلة من العصافير . تلتقط بسرعة حبات قمح مبعثرة . تطير في بهجة متجمعة ثم ما تلبث أن تتفرق . بعضها طار مع الريح . بعضها ضد الريح . البعض الى الأرصفة الأخرى . ينتشي صياد اليمام للحظات وهو يسمع رفيف أجنحتها . لماذا طارت العصافير حين اقترب منها ؟ إنه يصطاد اليمام فقط . لابد أنها تراقبه طوال السنين الماضية . تراه يصطاد اليمام ولا تصدق أنه لايصطادها . تنتظر اليوم الذي يصطادها فيه ولا يفعل فلا تصدق . ربما تفكر أنه يتركها يوما ليوم آخر . لابد أنها عاشت في ترقب وخوف . ولابد أنها نقلت ذلك لكل العصافير ولقنته لصغارها .

ينتبه صياد اليمام لأول مرة ، إنه إنما يسير فوق الجزء المكشوف من الرصيف ، ولا حاجة به لرفع بندقيته ، والنظر الى أعلى . لقد ظهرت الشمس فجأة ، وانجلت السحب . راقت صفحة السماء ، وخفت حدة الريح . وهو

يشعر الآن ببعض الدفء يسري فيه ، وفي الجو ، وينتهي صف العربات فينظر ، ولا يرى الكشك الخرساني البعيد ولا الشرطي . لايصدق ويقف .
بالأمس أخطأ وسأل الشرطي .
ــ لماذا لم تطلب نقلك الى مكان آخر ؟
ــ نسيت .
وانطلق الشرطي في ضحك عريض
ــ كل يوم أفكر في ذلك بالليل . يطلع النهار أنسى .
واستمر يضحك .
ــ ابني الذي صار عطشجيا يسافر مع القطارات يرسل الى خطابات من البلاد ، ويقول أنه كل ليلة يفكر في العودة وزيارتنا ، ويطلع الصباح فيركب القطار وينسى .

وتندت عيناه بالدمع .
ــ أكثر من ثلاثين عاما أنسى ــ وبعد لحظة ــ المشكلة أنى لا أعرف عملاً آخر . زملائي على الأرصفة يجدون من يتحدث معهم وأنا وحدي أقاوم الذباب . انني اتسلى بحشو البندقية بالرصاص وتفريغها وعده ، ثم حشوها وتفريغها وعد الطلقات من جديد ، مع أنها عشر طلقات لا تزيد ولاتنقص ولا تتغير .

فكر صياد اليمام في « قمر » كيف سألته عن عدد اليمام الذي أصطاده
فسمع الشرطي يقول .
ــ بالمناسبة هل تحصى اليمام ؟ . انني لا أراك تصطاد منذ سنوات . هل أحصيت ما أصطدته من قبل ؟
أرتبك صياد اليمام . هل يكون للسؤال معنى ؟ لقد سمعه حتى الآن مرتين ومايزال في منتصف اليوم . قال الشرطي .
ــ أنا صرفت من السلاحليك حتى الآن حوالي مائة وثلاثين ألف طلقة . أيام

الجمع والعطلات تجعل العدد غير دقيق .

ابتسم صياد اليمام وهو يشعر أن الصندوق الخشبي ينخفض به . قال . الشرطي محولا الحديث .
ــ لقد رأيت الجبار أمس .
لم يرد صياد اليمام .
ــ رأيته يخطب في سرادق كبير امام جامع سيدي القباري . لقد رشح نفسه فى انتخابات مجلس الشعب . كيف لا تعرف وأنت تسكن في الدائرة .
وانطلق يضحك فجأة بينما قال صياد اليمام في غيظ .
ــ لكنك تقول أنها نفس الطلقات لم تتغير .؟
أجاب الشرطي على الفور
ــ لكن الأيام تختلف . أليس كذلك ؟
وبدا حازما كأنه يصدر أمرا .

○ ○ ○

يفتح صياد اليمام عينيه على اتساعهما ولا يراه أو الكشك . شيئا فشيئا تعود السحب تقف بين السماء والأرض . يتراجع الدفء . يرتعش قليلا . يرى الدرج في نهاية الرصيف . يهبط . يعبر القضبان الكثيرة والعوارض الملطخة بالمازوت الساقط من القطارات والأسلاك المرتخية . يرى هذا كل يوم ولا يهتم له . اليوم يشعر كأن القضبان تلتوي صارخة ، تريد الفرار من المسامير القاسية ، التي تربطها في عوارض حديدية وخشبية ، حفر لها عمال الدريسة في الأرض ، ووضعوها وردموها ودكوا التراب والزلط حولها وتحتها فصارت هى والأرض والقضبان كتلة واحدة ، ووضعا أبديا لافكاك من أسره . أى سؤال سمعه أمس وما معناه ؟ وما معنى أن يختفي الشرطي وقمر والكشكين ؟ ..

في لحظات ، وبغيظ لا مثيل هل ، يصبح غير معن بشيىء ! ويقترب من « رصيف القصب » . يصعد فوقه ويقف مترددا . كان هناك شيىء يفعله قبل أن يصعد هذا الرصيف . ماذا كان يفعل ؟ لا يذكر . رأى منذ قليل شيئا غير الذي كان يراه كل يوم . ماذا[رأى وماذا اختفى أيضا غير قمر والشرطي ؟ لايذكر ؟ هل يعود الى البيت الآن .؟ الرصيف الطويل يبدو مثل كفن . وخال تماما من القصب ، ليس فوقه الا مصاصات قديمة أدهشه أنها كثيرة لدرجة جعلته يتخيل أن جمعا من الملائكة أو الجن هم الذين امتصوا القصب كله بالليل . وإذا لم يكن هناك جن أو ملائكة فلابد أن أهل المدينة كلهم اجتمعوا الليلة الماضية فوق الرصيف يمصون القصب.يقف فجأة ويستدير جاعلا بقية الرصيف خلفه . ينظر الى المنطقة كأنه يقف فوق جبل .

هذه المنطقة هي التي يأتي اليها دائما وليست غيرها . لابد أن يدرك ذلك جيدا وإلا التاث . لن يترك شيئا يفعل به ذلك . يشمخ في وقفته كجندي يعلن عن وجوده .

الفضاء الرحب ممتد أمامه مكللا بالسحب . البرد صار ينعشه ولا يرعشه . وعليه أن ينظر جيدا . سوف يرى مالم يره . سيذكر ما نسيه . لايمكن أن يختفي كل شيىء مرة واحدة . حتى اليمام سيظهر بعد قليل . وتطول وقفته ..

○○ حين وصل الى الاسكندرية لم يكن يعرف أن في الدنيا يماما . فمن قبل لم يكن ينظر الى السماء . وأول ما واجهه من الاسكندرية فضاء أبيض رائق ، وبهلوان يتجمع حوله الناس في ميدان المحطة . في حي الكرنتينة كانت الطرق غير مرصوفة ، والمنازل متباعدة ، وسيارات النقل المارة تثير الغبار ولا يرى بين الحين والآخر غير بعض عصافير تقف فوق أسلاك الكهرباء الهوائية ، وأطفال يقذفونها بالحجارة بايديهم أو بالنبال . أزدحمت البيوت والطرقات فطارت العصافير رغم أن الأسلاك ازدادت في الهواء . في عمله بمكابس القطن لم ير يمامة وان سمع

الكلمة تتردد طول النهار في أفواه الرجال يصفون بها النساء . لكنه رأى يوما زميلا له سبقه في العمل « قبانيا » مثله ، قادما ومعه بندقية صيد . ثم رآه يأتي ويذهب بها كل يوم والمرة الوحيدة التي تحدث فيها مع أحد في غير أمور العمل ، كانت مع هذا الزميل الذي قال .

ــ طالما تعيش وحدك مثلي لماذا لاتصطاد اليمام ؟

لم يفهم كيف يرتبط صيد اليمام بالوحدة . لكن الأمر بدا له معقولا . اشترى بندقية صيد ولم يصطد شيئا في اليوم الأول . حين أتى الى العمل صباح اليوم التالي كانت دهشته غامرة . لأول مرة يرى أن تحت « كوبري التاريخ » المجاور تقع ورش غريبة ، لصناعة سفن صغيرة ، لترعة المحمودية الممتدة تحت الكوبري . وأن اللون الأسود الكثيف حوله هو ملابس النساء العاملات . وانهن رغم تعلق ندف القطن بثيابهن لا يفكرن في تغيير لونها . وانهن يبدين وهن خارجات من العمل للغداء أو الانصراف كطوابير جنازة صغيرة . لكن الثياب السوداء تكشف أيضا عن وجوه بيضاء حسنة رغم الفقر . ويلاحظ أن عمال الفرفرة بالمحلج ، تبدو صدورهم مضغوطة الى الداخل ، ويبدون منحنين الى الامام . انهم لا يحملون شيئا فوق ظهورهم وليسوا محدبين ، لكنهم مصدورون فيما يبدو . ورأى أن الجميع حفاة . يأتون ، يعملون ، ينصرفون كذلك . راعه مشهد الغداء حين تُفرش الأرض حول المكابس والمحالج المنتشرة ، بالتجمعات الصغيرة من النساء والرجال . تبدو جماعات النساء كأكوام سوداء تنبثق منها زهور بيضاء جاذبة . جماعات الرجال مبعثرة لا هوية لها . وربما هم لا يتحدثون خلال الأكل كما تفعل النساء . على يسار كوبري التاريخ اقيمت بعض خيام قصيرة من الخيش تحتها حلاقون يشم رائحة صابونهم الرخيص وبعض باعة الجبن القريش والقديم والفول والفلافل والخبز الشمسي . فكر أن هؤلاء الباعة لابد يعرفون أن يومية الرجل خمسة وعشرون قرشا والمرأة عشرون . ولا يتقاضي الاربعين قرشا إلا من هو مثله من القبانية والملاحظين .

كان الباعة يقدمون الطعام في أطباق قذرة من الالومنيوم والصفيح . ولم يعرف صياد اليمام أنهم سيلجأون الى طريقة غريبة بعد خمس سنوات مع الارتفاع الجنون للأسعار إذ سيفتحون « الرغيف الشمسي » ويغمسون في وعاء المش فرشة كانت أصلا مخصصة لحلاقة الذقن ، ثم يدهنون الرغيف من الداخل بالمش مستخدمين الفرشة . ذلك أنه سيكون قد هجر العمل ، وفي طريقه الى البار لن يرى شيئا لأنه يذهب مساء . لكنه سيعرف بعد ثمانية أو تسع سنوات أن الباعة والحلاقين اختفوا من المنطقة تماما ، لظهور أعمال أخرى أقل جهدا وربحها بلا حساب !

ذهب مع زمليه في اليوم التالي مدركا أنه لن يمشي كثيرا . سيعبر فقط شريطي الترام ويدخل في شارع واسع قصير ينتهي ببوابة حديدية ضخمة ، يعبرها فيجد نفسه أمام منطقة واسعة من الأرصفة والقضبان والقطارات .

علمه زميله أسماء الأرصفة . قال أن كل رصيف اشتهر بما يأتي فوقه من بضائع أو ما يغلب عليه منها ، ماعدا رصيف الباشا الذي لا يستخدم كثيرا ، والذي يمكنه الوصول اليه من بوابة أخرى أقرب الى منزله .

قال :

ــ ألا يكون الصيد إلا فوق الأرصفة ؟

قال زميله .

ــ إذا توغلت للأمام ستجد بعض أشجار . لكن الفرصة هنا أحسن . وإذا توغلت بعد الأشجار لن تجد إلا قضبانا تدور حول الاسكندرية .

ابتسم وقال :

ــ إنك تعرف المنطقة جيدا .

قال زميله .

ــ كنت أعمل بالسكة الحديد .

كان يرى زميله مقبلا في العمل على الفتيات والنساء . ويراهن مقبلات عليه .

ابتسم وقال :

ــ لايوجد نساء بالسكة الحديد .

قال زميله مقتضبا .

ــ كنت خفير مزلقان .

وجعل يتابع يمامة تنتقل من عارضة الى أخرى . قال .

ــ وماذا في ذلك ؟

أشار اليه زميله أن يصمت . في لحظات قليلة صوب بندقيته وأطلقها .طارت اليمامة مجروحة تحت السقف وسرعان ما سقطت . حين أمسكها وجدها تلفظ أنفاسها . أخرج زميله مطواه وذبحها ووضعها في مخلاته . قال .

ــ عليك أن تذبح اليمام . لا تتركه يتعذب ليعيش لأنه سيموت وأنت لا تدري !

ومشيا يبحثان عن اليمام . شرح زميله كيف كان عمله لا معنى له ، حيث كان يقضي النهار جالسا منتظرا ثلاثة قطارات يعرف مواعيدها هي التي كانت تمر فوق المزلقان فيغلقه أمام العربات والسيارات التي كانت قليلة .

ــ لكنها مهنة سهلة . لماذا تركتها . ؟

وجد نفسه يسأل . قال زميله .

ــ قلت مملة . المزلقان كان بعيدا عن المدينة ، وكنت انتظر وحدي في كشك خشبي صغير ، في منطقة خالية من كل شيء ، إلا بضع أشجار متفرقة ومتربة دائما ، وبين القطار والقطار وقت طويل . كنت افكر كثيرا وكنت أصاب بالضيق .

استغرق حديث زميله بقية اليوم وأكثر الأيام التالية .في ذكريات مؤلمة ومضحكة .

كان أبوه يعمل على « معدية » فوق ترعة المحمودية وكانوا يسكنون في « غيط العنب » . وحين جرت أول انتخابات لمجلس الأمة بعد الثورة طافت عربات في الشوارع تدعو الناس أن يعطوا أصواتهم بحرية لأول مرة ، وتدعو النساء بصفة خاصة أن يعطين أصواتهن . يوم الانتخابات خرجت أمه مصدقة ، ومعها حشد من نساء الحي لا يعرفن حتى اسماء أطفالهن . حذر أبوه أمه كثيرا من ذلك لكنها ركبت رأسها . امضى ابوه يوم الانتخابات في البيت وخرجت هي . وكان الحي منقسما بين مرشحيه الاثنين . « الجعافرة » يؤيدون مرشحا « والجهانوه » يؤيدون الآخر . والفئتان مقتتلتان أصلا بالصعيد وكثيرا ما يقتتلا في غيط العنب . قامت معركة بينهما عند باب احدى اللجان المجاورة لنقطة البوليس ، طارت فيها زجاجات البيبسى قبل أن تنقطع من البلاد ، فطالت واحدة رأس أمه فسقطت تحت الأقدام تنزف حتى ماتت .

أما أبوه فقد حزن كثيرا عليها ، وأحس بذنب كبير لأنه لم يمنعها بقوة ، فجلس معظم وقته في البيت يقرأ القرآن ويدعو لها . ولأن شقتهم في الدور الأرضي ، كانت نوافذها تطل على الشارع بحيث أن السائر فيه لو شب قليلا على أصابعه يراهم . والشارع رئيسي يمر منه غرباء ، لذلك كان أبوه حريصا على أن تظل النوافذ مغلقة معظم الوقت . لكن حدث أن بدأ « الأوتوبيس » السير في الحي لأول مرة . خرج الناس جميعا الى الشارع وصعدوا فوق الأسطح يتفرجون . فتح أبوه النوافذ وتركه يتفرج واخوته . كان الاوتوبيس كلما أتى حياه الناس وصفقوا كلما عاد . فجأة خرجت احدى العجلات الخلفية من أحد الاوتوبيسات وظلت تدور جارية فوق الأرض منحرفة قليلا الى الرصيف كانت كبيرة ومندفعة فاصطدمت بحافةالرصيف مما أدى الى ارتفاعها عاليا مع استمرار اندفاعها الى الأمام . بعد النقطة التي اصطدمت بها مباشرة كانت نوافذ شقتهم . دخلت العجلة المرتفعة من احدى النوافذ ، وسقطت فوق ابيه الذي كان يصلي فمات في الحال .

وغير ذلك كثير لم يشأ أن يقصه . قال أنه كره العمل لأن الوحدة وطول الوقت كانا يدفعانه للتفكير فيما مضى . اشترى بندقية رش وجعل يصطاد العصافير التي تأتي لتقف فوق شجرة مجاورة . وحين لا تظهر العصافير كان يمشي قليلا في المنطقة الواسعة الممتدة ، يبحث عنها فوق الأشجار المتربة ، ويعود مراعيا أن لا يتأخر عن مواعيد القطارات . ذات مرة ظل يمشي فوجد نفسه في بيته . في الصباح حققوا معه وفصلوه . في ذلك اليوم بالذات وقعت حادثة . اصطدمت سيارة نقل بقطار . وفيه بالذات كان القطار عسكريا ! وجاء في خطاب الفصل من العمل « إهمال ترتب عليه تأخير قطار على درجة عالية من الأهمية » . وضحك زميله وقال .

— سألت هل هناك حرب ولا أدري فقالوا في اليمن .

وضحك أكثر قائلا :

— لم أكن أفكر أن قطارا يمر في البقعة التي أجلس فيها يمكن أن يؤثر في حرب تجري في اليمن !

طال الزمن على حكايات زميله ، لكنه لم ينسها أو ينساه . كثيرا ما تساءل بعد أن اختفى فجأة لماذا حقا علمه الصيد وتركه وحده ؟ لماذا اختفى ولم يقل ؟ وحين لم يعد يتساءل كثيرا ، وبدا أنه اعتبر لقائه بزميله عابرا فوجيء بخطاب منه . كان ذلك منذ خمس سنوات . بعد عشر سنوات تقريبا من اختفائه . قال له في الخطاب « أرجو أن تكون نجحت في أن تحتل مكاني بين النساء في العمل » لم يكن يعرف أنه تزوج وهجر العمل مكتفيا بصيد اليمام . وقال « أرجو أن تكون متقدما في الصيد » فبدا لا يحسب السنين . في خطاب آخر قال « لعلك لم تمل المنطقة » فبدا قد نسى سحرها الذي صار يشد صياد اليمام كل صباح حتى الآن رغم عقم السنين الخمس الماضية . ثم أرسل اليه خمس خطابات كانت كلها عبارة طويلة تقول « إنني أصطاد في منطقة غريبة . يمامها عجيب . وإذا استطعت ان تهجر الصيد عندك فالحق بي » . فكر صياد اليمام

كثيرا في هذه العبارة . لم يفكر آن يذهب اليه . فكر فيها اكثر بعد أن انقطعت الخطابات تماما . قال في نفسه لماذا لايأتي زميله اليه . يعرف أن زميله لو أراد شيئا فعله . ربما لأنه لايرد على رسائله . لكنه تذكر أن زميله لم يذكر له عنوانه قط في أى من الخطابات . حاول كثيرا أن يتذكر ملامح هذا الزميل ففشل . لم يعد يعرف ما إذا كان قصيرا أو طويلا أو بين بين . أسود أو أبيض أو بين بين . تساءل هل حقا كانت حكاياته حقيقية . هل هو الذي يرسل اليه هذه الخطابات.لا يذكر أن زميله عرف عنوانه مرة . كيف أذن عرفه الآن ؟ . لقد جعله حديث الشرطيب يتذكره بعد أن أهمل التفكير فيه نهائيا . هل كان زميله حقا من البشر ؟ الفضاء حوله الآن متوقف عن الحركة . البضائع قليلة فوق الأرصفة ولم يظهر أحد . العربات عجوز عجوز . ومايزال يقف وقفة الجندي الذي يعلن عن نفسه . لكن لماذا يكون زميله كاذبا ؟ ولماذا يكون صادقا ؟! . كانت « قمر » حقيقة حتى أمس وها هى اختفت ومعها كشك الشاى ، بيتها . كذلك كان الشرطي الذي ماعرفه إلا متأخرا ليحدثه بأشياء غريبة . لكن ما يزال في اليوم بقية وقد يعرف شيئا عنهما . وقد لا يعرف . لا يقين إذن . لايقين . حتى صوت الريح التي عادت تشتد لا يعرفه . ولا يعرف ماإذا كان قول زوجته في الصباح عن البرد الشديد حقيقة أم وهما . ولكن ماذا عساه قد نسى وحاول أن يتذكره . لا يهمه ذلك ولن يهمه فيما بعد ! .

يلتفت ليمشي فوق رصيف القصب . يحكم السترة ويرفع البندقية وهو لم يزل في بداية النصف المكشوف ! . لا يرى يماما وهو ما خرج إلا للصيد . لا يسمع إلا صوت الأوراق تطيرها الريح . لكن مايزال هناك يقين بالفوز !

○ ○ يكتشف صياد اليمام أن في قلبه جرح اختفاء زميله ، وخطاباته الغامضة . علمه الصيد لسبب لا يعلمه ، بينما قال هو في نفسه حيلة جديدة بها

ينسى . وكانت الأيام طيبة معه فابتعد الماضي كثيرا كثيرا ولم يعرف أحد عنه شيئا حتى زوجته . لكنه يعرف أنها لم تصدقه ، حين قال إنه فقد والديه بالموت ، مثل كل الناس . كان يشعر بها تتابعه في شروده ، وكثيرا ما أحس بالضوء منعكسا من عينيها الى عينيه ووجهه ، ولا يبدي تجاوبا . كان هواء البحر ورذاذ الموج وسرعة قدميه في أماسى الشتاء تغسل قلبه وتجلو عينيه وينسى . كذلك كانت جولة الصيف المسائية . حتى بعد أن أقلع عن ذلك واكتفى بجلسة البار لم ينهزم . استمرأ دفء الخمر وانعاشها وقاوم حزنها . لم تتم له علاقة بأى من الرواد إلا متأخرا جدا ، ومرة واحدة . ظل يذهب وحيدا ويجلس وحيدا . يتأمله الجرسون ويقول ضاحكا . « أنت مثل الله تجلس على الكرسي وتحاسب البشر ! » .

كان في البداية يجلس صامتا خائفا الى حد كبير . يتحدث الى الجرسون باقتضاب . يطلب الخمر الذي صار يحبه . الروم والبراندى في الشتاء البيق أو الذبيب في الصيف . بعد ذلك أختلف نظامه حين صار يتحدث بلا خوف ، ويجلس بلا مبالاة . صار الجرسون يعرض عليه الأصناف ويطلب أن يجربها . لاحظ مع مضى الأيام أن الخمر تجلب نوعا خبيثا من الحزن يتسرب اليه مع كل كأس . ترك نفسه لذلك الحزن العجيب الذي ساعد عليه دفء شتاء الاسكندرية ورطوبة صيفها . لكنه ما لبث أن قاومه وطارد كل فكرة تحاول أن تطل من عين الماضي الذي يريد أن يسحقه . صار يشرب ويعرف أنه سيحزن ويجاهد أن يسافر بعيدا عن الأسباب القديمة . يترك صدره ينقبض . وجهه يتقلص . إذا دمعت عيناه لا يبكي ولا يمنعهما ! . يتفرج على نفسه ويقول في عزم « لن أموت أبدا . لن يقتلني شيء . والدنيا لن تدور دورة كاملة » . وكان رغم الهزال الذي يلحق بجسده ، يريد أن يمسك السماء بقبضته يسحقها في الأرض . أجل . كثيرا ما فكر في ذلك وهو جالس تحت شجرة التوت الضخمة الرابضة بعد نهاية رصيف الباشا بقليل . كان يرتاح تحت ظلالها بعد أن ينتصف

النهار . ينظر الى الأكشاك الخشبية الثلاثة امامها والتي بها بعض عمال الحركة . يفكر في أنه قوى ولن يستسلم . بالمنطقة أكثر من شجرة متفرقة . لكن هذه ذات جاذبية سرية .. أوراقها العريضة أكثر أخضراراً . تنشر سكينة على الأرض هو احوج ما يكون اليها . شجرة تكاد تتحدث بحنين دافق . حين يجلس تحتها يحس كما لو كان يضع رأسه على صدر الكون . تصبح الدنيا أما عطوفا . يتمدد على الأرض مستندا بظهره الى جذعها الضخم البارد ، واضعا البندقية جواره ، مرخيا قبعته فوق عينيه . لاينام . لا يحلم . فقط يرتاح . يتسرب التعب من أصابع قدميه وقلبه ! . إذا تساقط فوقه بعض التوت الأحمر أو الأخضر يأكله . يأكل الطعام الذي اعدته زوجته . وكثيرا ما فكر في « قمر » . إنها رغم جمالها وجسدها الأسمر لاتثير فيه رغبة جنسية . يفكر في وضعها وحيدة تنام في كشك وحيد في خلاء واسع كأنهما نبتان شيطانيان انشقت الأرض عنهما ، أو قذفتهما السماء . قرر كثيرا أن يقلع عن النظر اليها . إنها الوحيدة التي ترده الى الماضي . إنه ، حقيقة لا يعرف ما إذا كان يكرهها أم يحبها .

في السنين الأولى فكر كثيرا في زميله الذي اختفى . حين أتت الخطابات احس ببعض الاطمئنان . لكنه فكر أيضا في طريقة زميله في الحديث اليه . واليوم يدرك شيئا يبتهل أن يخطيء فيه . لقد اوقعه زميله في شراك جميلة . إنه لا يأتي بحثا عن اليمام . فهو لا يستطيع أن ينقطع عن المجيء حتى بعد أن غاب اليمام . أى صياد كان لابد يهجر المنطقة فور نضوبها من الصيد، وهو يتمسك بحبال واهنه . ماذا في المنطقة من سحر لتشده إليها هكذا . لماذا يأتي ؟ قمر التي لم تتحدث إلا بعد خمسة عشر عاما ؟ . الشرطي الذي شكا جرح لا يدركه وأن احس بباب اغلقه ينفتح عليه !؟ الأرصفة ؟ . العربات . ؟ البط ع . ؟ العصافير المذعورة ؟ « هند » جامعة الحبوب وأمها التي لم يرها ؟ شجرة التوت والاكشاك الثلاثة والعجوز الذي صادفه تحت الشجرة ؟ . كل ذلك مجتمعا ؟ . لايعرف . لم تعد هناك فرصة أن يفكر أكثر من ذلك .

لقد تذكر بعد أن مشى كثيرا فوق الرصيف ، أن ما نسيه هو الشجرة والأكشاك الثلاثة والعجوز . إنه لم يرها حين انتهى من رصيف الباشا . لم يرها حين التفت ينظر . أنبسطت الأرض أمام عينيه . صار مكانها مربعا خاليا متربا . لقد نسى أن يجلس هناك لأنه لم تعد هناك شجرة ولا عجوز . اختفيا مثل الشرطي وقمر . ويحس الآن بالضيق يكاد يبعثه . لكن رفيف أجنحة قوى ومتعاقب يملأ الفضاء فجأة . ينظر . مظلة من العصافير كثيفة . العصافير تساعد نفسها بقوة رفيفها على الاتزان في الهواء . المظلة لا ترتفع عن حافة الرصيف إلا قليلا . يقترب وهو يعرف . يود لو يتراجع ولا يستطيع . ماذا سيفعل الآن . ؟ كيف سيقاوم الغثيان والكره على القييء . هذا الثعبان اللئيم لماذا يظهر اليوم ؟ .

○ ○ ○

لايعرف أحدا يكره الثعابين مثله . يكره شكلها المنساب بميوعة . رؤوسها المبططة عيونها الصغيرة . انتتر صارخا . القى عليه تلميذ ثعبانا ، قال إنه ليس بثعبان . لكنه كان قد صرخ . قال التلميذ وهو يضحك أنه من الجلد الصناعي . ضحك التلاميذ فقال إنه أشتراه من طنطا من المولد . جلس الى التخته مقهورا . فتح الدرج . كان المدرس يكتب تاريخ اليوم على السبورة . وهو يجاهد أن يمنع نفسه عن القييء . كان داخل الدرج ثعبان آخر . والأولاد جميعا ينظرون اليه وينتظرون . تقيأ وبرزت عيناه . ارادتا الانطلاق ومعدته . دار به الفصل . « ياحيوان » . هتف المدرس فزعا من صوت القييء . كان قد بدأ يفارق الوعي . سقطت ذراعاه داخل الدرج وتلوثتا .

الآن يجد الظل حوله في كل مكان . الجو صار أكثر رطوبة . ليس هناك شمس كبيرة أو صغيرة . ينظر فوقه . سقف الرصيف سحاب قاتم قريب . كان قد اقترب من حافة الرصيف . فسرَّ له سقوط عش صغير جوار الثعبان وجود السقف فوقه . الثعبان يقف على جزء صغير من ذيله . يرتفع مادا جسمه

الطويل . في فمه عصفور صغير سقط مع العش . لقد مشى أكثر من نصف الرصيف ولا يدري . صوت العصافير ورفيفها يدفعه لأن ينهي الموقف . امعاؤه تدفعه أكثر . الثعبان يتلوى ولا تنعكس عليه أي أشعة . العصفور الصغير بلا ريش . أحمر الجلد . زغب قليل يغطي أعلى رأسه . إنه يراه جيدا رغم تراجعه . يرى حتى عظام ساقيه والعظمة الناتئة فوق الإست . يرى منقاره الصغير جدا . والدائرة الصفراء حول المنقار . لابد أن يقتل الثعبان .

○ ○ ○

قال العجوز فزعا « انتظر » . هذه أول مرة يراه . كان جالسا ممدا تحت الشجرة . اغفى قليلا وأفاق فرأى ثعبانا رفيعا صغيرا يزحف وئيدا ناحيته . قفز واقفا مزعوراً . تناول البندقية من الامام ورفعها ليضرب الثعبان . وقف ينظر الى العجوز مندهشا رافعا بندقيته . توقف الثعبان عن الزحف وبدا كأنه ينظر اليه . انحنى العجوز وفرد كفه فصعد عليها الثعبان .

— إنه أليف .

قال العجوز مبتسما . وجهه صغير برىء كوجه طفل . قال صياد اليمام لنفسه فيما بعد ، أن الشيوخ والأطفال يلتقون عند نقطة واحدة من خلف الزمن . كانت الغضون الكثيرة في وجه العجوز ، تبدو مضحكة حين يبتسم أو يضحك . وظلت عيناه ضيقتين ويرتدى دائما الملابس الخضراء للعاملين فى السكة الحديد .

تكور الثعبان في يد العجوز وبدا نائما . ابتعد العجوز به ثم عاد بدونه .

— وضعته خلف الكشك .

ظل صياد اليمام ذاهلا . اليوم شديدة الحرارة . بدا له وكأن شجرة التوت أحترقت وأن النار تشتعل حوله في أركان المنطقة .

— أراك هنا كل يوم وتمنيت أن اجلس معك .

قال العجوز فتعجب صياد اليمام .

— وماذا يمنعك . الشجرة والمكان ملككم وأنا غريب . ؟

— حين تأتي أكون انتهيت من الجلوس تحت الشجرة .

لم يفهم صياد اليمام . كان ذلك منذ اعوام قريبة . لم يشأ أن يتحدث أكثر من ذلك . قال العجوز .

— حاول أن تأتي قبل ذلك بوقت كاف .

لم يكن صياد اليمام يدرك أنه يأتي في وقت محدد . فهو في أيام الصيف حين ترسل الشمس أشعة غبية ثقيلة في تتابع أعمى مقيت ، وتبدو القضبان كأنها خطوط ثابتة كالحة صدئة لا تبرق ، وبقع المازوت كدم أسود متخثر ؛ والقطارات والعربات ساكنة متباعدة في خصام أزلي ، كأنها قطع أحجار ضخمة تركتها الطبيعة بلا عناية منذ ثورانها الأول ، حينئذ يجنح للجلوس تحت الشجرة . ترك العجوز ولم يفهم معنى أن يكون الثعبان اليفا ..

○ ○ جعل يفكر في حجر أو قطعة حديد ينهي بها الموقف . فكر أنه لن يستطيع الاقتراب مرة ثانية . وربما أخطأ الثعبان فقفز اليه . صياد اليمام لا يفعل ذلك . يعرف أنه لم يصطد شيئا طوال خمسة أعوام ، لكنه لا يزال قادرا على التصويب . أبدا لم تظلم عيناه أو ترتعش يداه . لقد علمه رجل كان يصطاد النمل الساري فوق الأرض . تركه أجل !. يغازله من بعيد بخطابات غريبة حقا !. لكنه — صياد اليمام — يستطيع قتل النملة لو طارت في الفضاء !! فليخب إذن ظنه من تصور أنه لم يعد ماهراً . وليخب ظن اليمام الذي يختفي معتقدا أنه حين يعود سيكون صياده قد هرم . إنه ، صياد اليمام ، طيف ليلي في نهار مشتعل . حلم خافت في ليل شديد الثقل . وغبي من قال أن خمس سنوات خواء هم ثقيل . زوجته غبية . الشرطي غبي . قمر . هند . العجوز . يسألونه ما إذا كان

يعرف عدد اليمام ، ولا يعرفون انهم أضاعوا ايامهم في العدد !! إن الذي اصطاد في جنح الليالي يماما كثيرا يحلم فوق العوارض وتحت الأسقف لا يهرم أبدا . الذي يركب فوق بندقيته كشافا رفيع الضوء ، واختاره كذلك تحديا لمجهول ، وصمم على أن يكون قطر دائرة الضوء عند غايته حين يصطدم بالسقف العالي ، لا يزيد عن حجم العصفورة !! ، ويميز به اليمام ، ويبرهن للدنيا أنه ما صاد وخاب ، هذا الصياد لا يعرف الهرم . يعرف فقط ، إنه ما يركز الضوء أكثر من مرة . لم يبحث قط . في كل مرة كانت يمامة . قبل أن تفتح عينيها تكون بين يديه . تسقط نائمة . يقطع احلامها بغد فيه طيران وحبوب . لم يسمع ، لا هو ولا اليمام ، صوت حبة رش أصطدمت بالسقف . لم يخطىء جسم اليمام . إنه ثعلب . بل يتعلم الثعلب من صياد اليمام . ولسوف يقتل الثعبان بحبة رش واحدة . هذا المخلوق المقزز الذي لم يصدق أنه يمكن أن يكون أليفا .

○ ○ ○

ــ إنه ثعبان أعرفه . يمضي النهار فوق الأرض وبالليل يسكن سقف الكشك الذي أنام فيه . إنه « بيتي » . الثعابين التي تسكن البيوت تألفها وتألف سكانها .

قال العجوز فقال له .

ــ لكنك فتحت يدك فصعد عليها . هذا شغل حواة .

ضحك العجوز الذي بدأ يصب الشاى . في المرة التالية . قال .

ــ الحواة تحطم أسنان الثعابين أو تختارها من النوع غير السام . إنا لم أفعل ذلك . إننا نعيش معا . ثم إنني تعلمت كيف أروض الثعابين من الهنود .

صار يذهب الى الشجرة في وقت يكون فيه العجوز جالسا تحتها . لم

يعرف هل قصد ذلك أم أن العجوز هو الذى غير موعده لم يفكر فى ذلك . صار يحس كأن السماء ارسلته هو والعجوز فقط الى هذه الدنيا ليعيدا ترتيبها . ثمت الفة عظيمة بينهما حتى في أيام الريح والمطر .

ــ يقولون أن عمر هذه الشجرة مائة عام .

قال ، العجوز ذات مرة . قال صياد اليمام .

ــ إنها قوية .

ــ ظلها عجيب . بارد كالثلج

كان ظل الشجرة كذلك فعلا . استطرد العجوز .

ــ هل جلست تحتها في الشتاء ؟

ــ لا .

ــ تسقط الأمطار حولها ولا تطولها . لاتصل اليها الريح الباردة . تنفث دفئا ــ وضحك العجوز ذو الوجه الطفولي ! ــ أقول دائما أن داخلها بالشتاء شمساً وبالصيف قمر ، وإنها بالليل تضيىء حولها وتحتها ولا يصدقني أحد .

○ ○ ○

وهو أيضا لا يصدقه أحد . يتصورون أنه صار عاجزا عن الصيد وخانة التصويب . الآن سيقتل الثعبان دون أن يرى منه غير الرأس الصغير .

ينبطح أرضا ورأس الثعبان يعلو حافة الرصيف بكثير . لابد أن الثعبان يعرف نقطة ضعفه . يريده أن يرى جسمه فيتقيأ . لن يعطيه الفرصة . العصفور لا يزال وسط الفم . الثعبان لا يبتلعه ولا يتركه . لا يأكله . الثعبان الخبيث لا ينهي الموقف . العدو الأزلي للعصافير يباهي بعصفور صغير كونا فارغا . وصياد اليمام لا يحب الزهو . أجل . ماحاجة الإنسان الى كسر قلوب

العباد ؟! . وماقيمة الانسان إذا كسر قلبه أحدا ؟ . صياد اليمام لا يحب الظلم . لماذا لا تأكل الثعابين الثعابين فيشيع العدل في العالم !. هذا الكون الظالم هو الذي جعل الانسان يأكل اليمام . جعله يصطاده . جعله ظالما .

○ ○ ○

ــ أنا قناديلجي . أنت صياد يمام فقط .
قال العجوز فرد صياد اليمام .
ــ أجل .
ــ ألا تصطاد الحمام ؟
ضحك . ظنها نكته . قال .
ــ للحمام أصحابه .
فكر العجوز قليلا . قال .
ــ أليس لليمام أصحاب ؟
فاجأة . قال مرتبكا .
ــ لا أعرف . إني أراه سابحا في الفضاء .
ضحك العجوز بشدة وهمهم .
ــ لا عليك ــ وصمت لحظة ــ لكنني لا أراك تصطاد هذه الايام . ألا تجرب منطقة أخرى ؟

لم يشأ أن يحدث العجوز عن رغبته في استبدال البندقية بأخرى أكبر وأقوى تقتل ماتحت الأرض وفوق السماء . ان يحدثه عما يشعر به هنا . إنه يتحول الى ريشة تطيرها النسائم ، يحس أن جلده يتغير ويتفتح لتنفذ من خلاله لذة سرية . يرتاح ويتنفس من كل مسامه .

كان العجوز يدقق النظر الى وجهه . جعل هو يدقق النظر في طابور صغير من عمال الدريسة يمشون يكادون ينكفئون . الأقدام ضخمة لأن أحذيتهم كبيرة . ملابسهم الخضراء قاتمة . على اكتافهم « عتلات » علقت بها خلف ظهورهم « مقاطف » لابد أن بها قطعا من الفحم والخشب يستخدمونها في إشعال النار في بيوتهم . وليس ببعيد عنهم مجموعة أخرى تحفر في الأرض بعد أن رفعوا قضيبين لابد سيغيرونها .

قال العجوز وفاجأ صياد اليمام كعادته التي عرفها فيما بعد .
ــ أنت تشبه ابني تماما .
ــ هل لديك أولاد .؟
ــ واحدا . مات . كان صياد يمام أيضا .

أرتبك . أحس أنه سقط من سقف الرصيف فوق البلاط المربع الصلد .
لكن العجوز أبتسم . أراد صياد اليمام أن يحول الحديث .
ــ أنت تصنع شايا ثقيلا حلوا .
ــ تعلمت ذلك في الصحراء من البدو .
ــ كيف ؟
ــ أصاب يمامة أسفل سقف الرصيف فطارت ووقفت فوق عارضة ولم تسقط . صعد يأتي بها فسقط . !

○ ○ ○

إنه ليس بظالم الآن . إذا كان الكون يعانده ويحجب عنه اليمام ، فلقد سبق وقتل اليمام ابن العجوز . الصياد الماهر لم يعلمه كيف يكون اليمام ظالما . لعله نسي .. ربما ليستكمل الخدعة . ربما لأنه لم يخطيء في الصيد . قال له « لا تطلق

حبة رش واحدة في الفراغ . أصعب شيء أن يشعر اليمام أنه مطارد . ثق في نفسك واطلق حبة الرش وستصيب . اليمام مثل البشر يظن أنه يعيش سعيدا ، ولا يجب أن تسلبه هذا الظن . بلاهة هي حقا تسيطر على الطير والحيوان وبني آدم ، لكنها وقد طال بها العهد صارت عين العقل . ألا ترى أن الناس حين يموت منهم أحد فجأة لا يحزنون كثيراً . إنهم يشعرون بضعفهم فيستسلمون . وربما لا يشعرون بأي شيء . لكنهم يستسلمون . إنهم في الحقيقة لا يريدون القاء الحصى في الماء الراكد . السعادة ماء راكد . لكن إذا مرض الانسان كثيرا قبل أن يموت ، أو أصابته حادثة ونجا ليعاني جراح الموت ، فالناس تشعر بالظلم حين يموت ؟ . لقد فشلوا في علاجه في وقت خيل لهم أنهم قادرون . دخلوا حربا عقيمة لمجرد أنهم حشروا في لغتهم شيئا إسمه القدرة أو الأمل واجهوا حقيقة لم يحبوا مواجهتها . إحتل العقل مكان البلاهة ونسى المساكين أنهم لا يريدون ذلك . لهذا لاتطارد اليمام إذا اجتمع . صوب بحيث تذهب حبة الرش في مقتلٍ ، فتسقط اليمامة من بين اخوتها . سترى اليمام يطير بعيدا ينتظرك . لن يعرف أنه الموت لأنك لم تكن موتا . كنت صيادا وعليك أن تظل كذلك فلا تكون ظالما.

هذا الثعبان الذي يرى مظلة العصافير المذعورة فوقه ، هو الظالم الوحيد الذي يستحق القتل . شيء ثقيل يتحرك في معدته وعليه أن ينتهي . لاذت الشمس بنوم طويل ولايعرف الوقت ، لكن لايزال في الكون ضوء ولو شحيح ، وهو يستطيع أن يرى . صياد اليمام صبور حقا ، لكن الأريب عليه أن يعرف اللحظة التي ينحي فيها الصبر . رأس الثعبان ليس يمامة . لكنه سيجعله كذلك .

تضايقه المخلاة المعلقة حول كتفه فيخلعها بسرعة ويضعها جانبا . يباعد مابين قدميه . يرتكز بسني الحذائين على أرض الرصيف . يرفع نصفه الأمامي الى أعلى ويصوب . رفات أجنحة العصافير صخب عاصفة حمقاء . رأس الثعبان

يختفي أسفل حافة الرصيف . يرى بدقة شديدة حافة ظهر العصفور . لا يصطاد العصافير . لايفهم ، وربما لايفهم أحد لماذا ؟ آه . ربما لو اصطاد عصفوراً مرة لم تمر السنوات الخمس بلا صيد !

○ ○ ○

ـــ لماذا لا تصطاد العصافير يا أبي . ؟

ـــ ....

ـــ خذني معك أصطاد . أنت كبير تصطاد اليمام وأنا صغير أصطاد العصافير . ابتسم .

ـــ لماذا حقاً لاتصطاد العصافير ؟

قالت زوجته وهي تضحك . كانت معطرة بعطر رخيص .

ـــ لماذا لا تستحمين وتزيلين هذا العطر ؟

فعلت وهي تبكي . سمع صوتها في الحمّام . يحبها لكن لا يعرف ماذا يباعد بينهما . لاتريده أن يصحب الطفل وهو يريد .

كانت وهي تضع الأكل للحمام فوق السطح تسقط فوقها أشعة الشمس المائلة فتجعل ظلها طويلا ممتدا . كان يرنو اليها . أمسكت بحمامة وكلمتها . عرف أنه يمكنه أن يفعل أشياء كثيرة . توقد أحساسه . أدرك أنه يمكن أن يكون له تاريخ . حقا . لكن كيف بالذي ضاع منه العلم والعائلة والوطن . أي ظلام وأي نور ممكن . ؟ في الصحراء إما أن تصرخ أو تموت . إنه يكره الموت رغم أن كل ما عرفه أحبه ! . قرى وحقول . ناس تتحدث في الهواء الذي يسع كل شيء . حفاة وعراة ولصوص . قطارات تتكدس فيها العربات والأجساد . أخرى تنظر العيون فوق الأرصفة الى ما يطل من خلف زجاجها اللامع من بللور ! . محلات عمل فيها وحقول الجنى فوقها يتزود بزاد قليل تبتلعه الرحلة القادمة ،

وهو يسأل الم تمر بكم امرأة بيضاء لا يعرف أحد لها وطنا ، رآها رجل ابيض رغم إنه من قاع الصعيد ، فقال « أنت لابد من الشمال لأنك بيضاء ! » ولم ترد ، فقال إنها من وراء ظهر الدنيا ونزح بها وراء القضبان ثم تركها وتركته !!؟ يسأل والقرى الصغيرة تشفق عليه ، وتتحسر اعينها وشفاها ، وماتلبث أن تغلق أبوابها الخلفية . المدن الكبيرة ، توقظه على الجوع والموت فيحب الحياة هاربا من أبوابها الواسعة ، وهو الآن يريد أن يربح مرة .

أتجه الى حجرته وعاد بين يديه يمامة لم ينزع ريشها . جعل يفعل كما تفعل مع الحمامة . كانت الحمامة تسمع واليمامة خرساء . الحمامة ترفرف واليمامة ساكنه . حين أقترب من السور الفاصل بينهما قال .

ـــ هل تحبين الحمام . ؟

أشعة الشمس المائلة تنام فوق عينيها ووجهها المستدير . تألقت العينان السوداوان ولمع بياضهما . علمته عينا أمه أن يحب العيون السود حين تواجه اشعة الشمس فيتألق البياض والسواد مبهرين . وكم قالت له أن عينيه الخضراوين أجمل ولم يقتنع . تركت الحمامة من يدها فطارت هابطة منضمة إلى بقية الحمام الذي يتقافز فوق السطح ويهدل .

إقتربت منه فقال كم هي جريئة الاسكندرية . هل حقا ستقبل عليه بالبراءة التي في عيني الفتاة ؟ . أم لعلها الجسارة تختبيء في مهد جميل ؟ . نسي أنه رأى على شواطيء الصيف وفي الطرقات جرأة أكثر . في رحلة المساء الشتوية نساء يدور بهن الهواء . كان لايرى إلا أنه كل يوم يزن . طن وسط صدور مخلولة وعيون تائهة للرجال . ونساء يضحكن كثيرا ويغنين ويثرثرن لكنهن لا يقلن ماذا يفعلن في المساء . كان يعرف أن طقوس حزنهن الليلية اثقل من أن تقال . ويعرف لم تستجيب الكثيرات منهن في زوايا المصنع لأطراف الرجال ! .

وتساءل لماذا لم ينزل البحر حتى الآن . ؟ كيف لم يعلمه زميله الذي . أختفى السباحة . ؟ لماذا لم يعرف أن الناس قد تهوي البحر في كثير من الأحيان ؟

قالت ..

ـــ هذه يمامة ؟

ـــ أصطاد اليمام .

ـــ لكنها ميتة !

جفلت . تركت السطح غاضبة . أى حماقة ياصياد اليمام ؟ ظل شهراً لا يراها . أغلقت الإسكندرية باب بهجتها الذي بدا أنها فتحته بجرأة أو براءة لم يعد يدري . لكنها ظهرت بعد شهر شاحبة . رنا اليها حزينا وهي تستند على حافة سور السطح في تعب . لم تلتفت إليه رغم أنه كان يعرف أن رسائل عينيه الوادعة تصل اليها . جلست تنظر الى زوج حمام يتناغيان بمتقاربهما . تلقى اليهما حبا ولا يفترقان . أبتسمت لهما فابتسم لها ! التفتت اليه وهي تنهض فرآها تبكي . للبشر طبائع وأسرار حقاً . عرف ذلك جيدا . شملت معرفته الجن الذي لم يحنُ عليه
طبائع وأسرار حقاً . عرف ذلك جيدا . شملت معرفته الجن الذي لم يحنُ عليه
يريد القفز ممتلئا بالحسرة وخبث الإنسي السقيم . لكنه تساءل كيف لهذه الفتاة البيضاء كالشمعة ، الهشة كعود الورد يفزعها موت يمامة ، أن تكون قاسية فتختفي شهرا ، وهي تعرف أنه ما أتى باليمام إلا ليجد طريقا ؟ وتعرف أيضا أن عينيه الزائغتين خاليتان من الخبث . بل مليئتان بوداعة وسكر الانسان في حضرة السماء ! لكن من يشأ الصيد يلتمس عذرا للفريسة ويجهد شباكه ! .

○○ قال له العجوز مرة .

— لايصنع الشاى مثلي إلا من خبر الدنيا وعرف الناس !
كاد يضحك لكنه جاري الرجل فتساءل .
— هل عشت كثيرا في الصحراء .
استلقى العجوز على الأرض . أشار لصياد اليمام أن يفعل مثله .
— عمري — وعقد كفيه تحت رأسه كشاب نشط — وأين ؟ . في فوكه . هل سمعت عنها . إنها بعد العلمين بقليل . هل تعرف العلمين ؟ أحكى لك . انكم لم تروا شيئا من الدنيا .

لم يكن العجوز ينتظر اجابة من صياد اليمام . كانت شهور طويلة مضت على معرفتهما لم يتحدثا فيها عن كل شيء يريده العجوز . بدا مثل قمقم فتح فجأة ولا قبل لاحد بغلقه لأن الجنى الذي خرج منه سرق خاتم الأسرار ! جعل العجوز يحكي بلا توقف .

كان صياد اليمام متألما كأنما العصا التي هوت فوق رأس عمه سقطت فوق رأسه هو مع كلمات العجوز الأخيرة . تلك تحت غشاوة الكذب لكن فتحت طريقا وحيدا وراء سراب . هذه تقلب كرة االأيام ، لماذا ياعجوز ؟ ياطفل ؟ . هل تعرف أن صياد اليمام رأى بحر الاسكندرية ولم ينزله ؟ . كيف يخبر الانسان الدنيا أكثر من ذلك ؟. رأى أن لا يجرح الرجل الطيب . فليسلم بأنه ما رأى ، ويسمع
— كان هتلر سايق في الدنيا . وتشرشل يلعب بالعصا لأن الالمان هاجموا الروس . وحدثت غارة فوق فوكة والوقت ليل . جعلت القنابل وجه السماء أحمر والأرض صارت قاعدة فرن . جرينا من فوكة الى العلمين ولاندري . أكثر من ثلاثين كيلو ولم نتعب . لم نتعب .
— هذا غير معقول . !

لم يرغب صياد اليمام أن يقاطعه . لكنه لم يصدق بالفعل . قال العجوز ببراءة شديدة .
— لماذا ؟ . كان ذلك عام ١٩٤٢ . فلماذا لا يكون معقولا ؟
لم يعلق صياد اليمام .
— في زمنكم كل شيء معقول . هل سمعت عنْ الذين جروا من العريش الى السويس ؟
— هذا أيضا غير معقول .
قال العجوز جادا .
— اذن نصف المسافة معقول . ونصف المسافة من العريش الى السويس أكبر من المسافة من فوكة الى العلمين . إنني اعرف ذلك جيدا من عملي .
— هل عملت في العريش أيضا ؟
قال العجوز نافذ الصبر .
— أسمع ولا تقاطع .
أبتسم صياد اليمام . بدا متأدبا . فجأة قال العجوز .
— هل تعرف أنى مثلك لا أصدق ؟
— ألم أقل لك ؟.
— أقصد اننا جرينا من العريش الى السويس !
صمت العجوز . قال صياد اليمام .
— لقد جرينا مرة وجروا مرة .
— أجل ياولدي . لكن أحدا لم يقل انهم جروا !
وعاد الى الصمت من جديد . اعاده صياد اليمام الى حديثه الأول .
— ماذا فعلتم في العلمين . ؟
استجمع العجوز نفسه .
— وجدنا قطارا يتحرك الى الاسكندرية فقفزنا فيه . كنا أربعة أو خمسة . لاأذكر الآن . قفز كل منا في العربة الأقرب اليه . وكان السائق هنديا .

— هندي يعمل في السكة الحديد . ؟

نفد صبر العجوز مرة أخرى .

— ياولدي لا تقاطعني . كان هذا عام « ١٩٤٢ » . أحضر الإنجليز جيوشا من كل الدنيا . استرالي ونيوزيلاند وأفريكان أيضا لهم ذيول . ألم يقل لك أبوك شيئا عن هذا ؟ . ألم يكن أكبر منك سنا . !؟

ضحك صياد اليمام عاليا .

— ثم إني قلت لك أن الهنود علموني كيف امسك الثعابين . كان هناك ثعابين كثيرة في تلك الأيام .

وأكمل العجوز حكايته الغريبة . السائق الهندي كان أكثر جنونا من الطائرات الايطالية والألمانية . العجوز قابع في العربة التي خلف الماكينة مباشرة . لحقت الطائرات بالقطار . كانت القنبلة تسقط فوق العربة فتفصلها عن بقية ال ربات . تشعل فيها النار وتطير القضبان والفلنكات والزلط مشتعلة متصادمة في الظلام . يظل القطار مسرعا يسابق الطائرات . بدا كأن الأمر محسوب . قنبلة قنبلة وتنفصل العربات عربة عربة لتشتعل وما تحتها . في النهاية لم يبق غير الماكينة والعربة التي بها العجوز . وكأن السائق الهندي كان يعرف أن للعجوز أصدقاءا من الجنود الهنود ، صمم على أن لا تلحق الطائرات بهما . لكن الطائرات ظلت تطاردهما . العجوز يرى سقوط القنابل خلف العربة والأرض تنفجر . يشتعل الظلام ثم يعود فيشتعل . ظل متوقعا سقوط قنبلة في أى وقت فوق عربته أو فوق القطار . بل تمنى ذلك لينتهي التوقع المرعب .

— هل جربت ذلك ياولدي ؟

كان العجوز مغمضا عينيه .

— إنه وضع صعب .

— ربما لا تصدق . ؟

صمت صياد اليمام قليلا . قال .

— إنني أصدق كل شيء .

قام العجوز ليضع كوز الشاى الأسود فوق النار بعد أن القى مابه بعيدا ، وملأه بماء وسكر وشاى معا . اعتدل صياد اليمام . جعل ينظف بندقيته . لاحظ بقايا تفل الشاى التي القى بها العجوز ، وهى مبعثرة كرات بنية قاتمة في صف واحد فوق الأرض . عاد العجوز ليجلس ويقول :

— كنت اتوقع أن يقف القطار في الاسكندرية . لكن كانت هناك غارة شديدة على المدينة سمعت صوتها والقطار يدور حولها . بل رأيت اللهب يرتفع من قلب المدينة . إنها غارة مشهورة في الاسكندرية أسمها غارة الست ساعات . الليلة كلها كانت مشهورة . ولما رأيت أبراج الحمام وسط الليل ادركت أن السكة فتحت للقطار الى القاهرة . قررت النزول في كفر الزيات . قريتي قريبة منها . هل تعرف كفر الزيات ؟

ماذا يفعل به العجوز ؟ فكر صياد اليمام . لم يشأ أن يجيبه . ولأيام ، وربما لشهور بعد ذلك فكر صياد اليمام كيف امضى العجوز الوقت تحت القنابل حتى ابتعد عن الاسكندرية . وعلى قدر ما رأى من ضعف البشر فإن الوقت الذي امضاه العجوز منتظرا موته تحت الغارة جعله لا يصدق أن الانسان كائن يمكن قهره . وفي يوم شتوي دافىء اتسعت فيه الشمس وجلست مرتاحة فوق الأرض ، أحس صياد اليمام أن المنطقة الواسعة ذات الأرض السوداء والعربات القائمة والأرصفة القذرة ، صارت بيضاء تعكس بهاء النور ، وتدفع العيون الى الاتساع وامتلاك الاسرار . فكر أن العجوز الذي يتحدث عن خبث الزمان لا يسخر منه أو يقصد يضايقه . ربما الأمر عكس ذلك تماما . ربما يتمنى لو لم ير شيئا مما خبره . أو لعله يحمد لصياد اليمام النجاة . في عصر ذلك اليوم سأله .

— لماذا سألتني ماإذا كنت أعرف كفر الزيات ؟

صمت العجوز قليلا . قال وهو يتراجع يستند الى جذع الشجرة .

— هل ضايقتك . ؟

أدرك صياد اليمام أن ما فكر فيه صحيح . قال .

ـــ لا .

قرر أن يحول الحديث لكن العجوز بادره قائلا .

ـــ إنها البلدة الوحيدة التي لم أعرفها رغم قرب قريتي منها وعملي في السكة الحديد . ورغم ذلك أكرهها !

لم يعرف صياد اليمام كيف يحول الحديث . صمت .

ـــ كان لي أخ ناشز يقول عنها دائما بلدة ميتة تقع على نصف الطريق بين القاهرة والاسكندرية . فلا هي لحقت بالبحر ولا النيل . حتى النيل يمر عليها مقطوع الذراع .

وصمت العجوز قليلا .

ـــ كان غريبا يكره كل ماهو نصف نصف . لم يكن يفهمه أحد من الاسرة .

إستمر العجوز يتحدث متقطعا . بدا كأنه لا يحدث أحدا بعينه . وصياد اليمام الذي ظن أنه أبتعد كثيرا عن الماضي كان يتراجع اليه .

ـــ كان أبي يعذبه كثيرا لشقاوته وهو صغير . مات أبي فتطوع في حرب فلسطين وعمره ثمان عشرة سنة . عاد برصاصة مستقرة جوار القلب ويزفر متحدثا في السياسة .

ـــ ....

ـــ تطوع مع الفدائيين في حرب القناة وعاد برصاصة في فخذه ، وقال أن النحاس باشا صار مثله يكره كل ماهو نصف نصف . هل تذكر النحاس باشا . آه . كنت صغيرا ياولدي .

أحس صياد اليمام بالعطش لماء بارد . لاحظ أن الزير الكبير القائم إمام أحد الاكشاك الخشبية الثلاثة قد سقط غطاءه جواره ، وفكر أنهم لابد أهملوه هذا

الشتاء رغم إنه جاء دافئا .

ـــ صار مدرسا فقلنا أن المياه ستبتلعه والزواج ، لكنه تطوع في معركة بورسعيد وعاد مصابا أيضا .

وحين قال صياد اليمام لنفسه ، إن اللاعب الذي يمسك بخيوط الأيام ، لا يمكن أن يجعلها تتقابل على هذا النحو العنيف ، قال العجوز .

ـــ جاءتني زوجته يوما وقالت إنه اختفى .

رأى صياد اليمام أمامه لأول مرة ، وجها هرما ممزقا يبكي بدموع شحيحة . حاول العجوز أن لا تسقط كوب الشاى من يده المرتعشة ، ونجح بعد أن أمسكها بيديه . قال .

ـــ قامت ياولدي حربان بعد ذلك . لابد أنه لو ظل حيا لاشترك في احداها أو فيهما .

كان أبى يقول إنه لن ينته إلا أن يُقتل .

صمتا طويلا في ذلك اليوم . تسللت البرودة الى الفضاء من حولهما . أقترب الليل بسرعة . قال العجوز وصياد اليمام يوشك على الرحيل .

ـــ تعرف ما أجمل شيء ؟

لم يرد .

ـــ سطح القنديل . إنني حين اصعد فوق السيمافور لأغير زيت القنديل أضع خدي على زجاجه وارتاح . أجل . كثيرا ماتمت واقفا على السلم ومحتضنا السيمافور وخدي على زجاج قنديله البارد الرطب .

مرت الأيام ولم تنقطع حكايات العجوز ، رغم أنها كثيرا ما حركت ماء ثقيلا حارقا ، إلا أن العجوز والشجرة كانا محطة حلوة .

حاول صياد اليمام أكثر من مرة أن ينهي يومه دون المرور على العجوز فلم يستطع . كان يدور في المنطقة ويدور ، يجد نفسه قبل أن ينصرم اليوم ماضيا الى الشجرة . في كل مرة يجد العجوز جالسا تحتها مهما اختلف الموعد . كثيرا ما يتردد في الحديث لأنه يخشى أن يهيج ، إذا تحدث عن أى شيء . ذكرى شجية عند العجوز عريض الحياة . لكنه كان يتحدث ويسأل . صار العجوز لا يصمت ولايبدو على وجهه أسى . بل يضحك ويصفق بيديه كطفل .

قال إنه نسى أمر زوجته منذ أنتهت الحرب العالمية الثانية . لقد امضى الحرب في فوكة حارسا على خزان مياه ضخم بناه الحلفاء تحت الأرض . وليلة الغارة الشهيرة قفز من القطار عند محطة كفر الزيات . كان القطار لا يقف والسائق الهندي بدا يريد أن يلحق بالآخرة ! . أصيب العجوز وعولج أربعين يوما في طنطا ، وعاد الى العمل حتى تنتهي الحرب . وصف لصياد اليمام الأعداد الهائلة من القتلى بعد معركة العلمين . كم رأسا وجدها في خوذاتها بلا اجساد ، وكم قدما في حذائها بلا ساق . وكم خاض في دم متنثر . بعد الحرب عمل فراشا في القطارات ينظفها في المحطات الأخيرة ، ويجلس وحيدا وسط المقاعد الصفراء وتحت الضوء الشحيح يغني « ياوابور قل لي » لعبد الوهاب ترق وصار عطشجيا يمون القطارات بالفحم والمياه ويشعل النار . تغيرت القطارات وجاءت غيرها لا تعمل بالفحم فصار « محولجيا » يقوم بالعمل على التحويلات الأرضية . وانتهى به الأمر « قناديلجي » يشعل القناديل ويغير زيتها وفتائلها ويرتاح على زجاجها . في رحلته الطويلة كان يزور زوجته كل شهر أو شهرين . بعد أن استقر في الاسكندرية تذكر زوجته فاحضرها . هوى ابنه الصيد فجأة ومات . عادت زوجته الى القرية . كرهت الاسكندرية ولم تر بحرها . زارها مرات قليلة لكنها صارت زاهدة في الكلام . بدت قد اعتزلت الدنيا والناس . لماذا اذن يسافر اليها؟ . كان العجوز يضحك . إنه راض عن العيش في هذا المكان مع الثعابين ومنتظر موته

تحت الشجرة .

○ ○ ○

اليوم أختفى العجوز والشجرة والأكشاك الثلاثة . يسأل صياد اليمام نفسه والثعبان الخبيث لم يرتفع رأسه بعد . يمكن أن يحدث هذا في ليلة واحدة . تختفي « قمر » و« الشرطي » و« العجوز » والأكشاك جميعا . الانسان الخبيث يمكنه أن يفعل ذلك . وربما يغير الله وجه الأرض أى لحظة يشاء . إن الذي جعل الأعوام الخمسة تمضي بلا صيد لقادر أن يجعل الأرصفة تصعد فوق السماء . لكن إن تختفي الشجرة العظيمة فهذا هو اللغز رغم بساطته . الأشجار لا تدخل في حساب الانتقام . إنها موئل راحة وصدر حنان . الله يخلق الانسان ليأخذه . الحياة غزل مقيت بينهما حقا . لكن صياد اليمام لم يسمع أو يقرأ أن الله يغازل الأشجار ! . وشجرة التوت الوادعة العجوز لا قبل لإنسان بقطعها . شمسها وقمرها يهدئان ثورة الانتقام .

يدرك صياد اليمام أنه ما رأى اليوم غير أرصفة ميتة ، وبضاعة ملقاة متباعدة ، وقضبانا سوداء متشابكة ، وأسلاكا متهدلة ، وبقعا من المازوت الأسود سقطت من سحب حمقاء . وإنه لم يشاهد حتى عامل دريسة واحد أو وحيد يمشي سليما أو يعرج بكتفه المائل ! . لكنه لايصدق أن هذه علامات موت ! الموت لا يأتي بشعا هكذا إلا بإصرار . وصياد اليمام ما خذل أحدا أو إله !.آه . بالامس قال العجوز .

ـــ أراك صاحبت الشرطي مؤخرا .

ـــ لكني لا أحبه مثلما أحبك .

ضحك العجوز وقال .

ـــ تحب قمر ؟

ابتسم صياد اليمام . استطرد العجوز .

ــ الشرطي « موسى » هذا لغز كبير .

صمت صياد اليمام الذي لم يكن قد سأل الشرطي عن أسمه . يريد أن يسمع فقط . عرف كيف يحدث العجوز .

ــ يقولون إنه منذ ثلاثين عاماً وهو يجلس في الكشك . ولا يفعل هذا الا خبيث !

داوم صياد اليمام الصمت .

ــ يريد أن يتزوج من « قمر » . كثيرا ماعاد الى المنطقة بالليل ليحدثها في ذلك . في كل مرة ترفض فيجلس ويبكي أمام الكشك .

دهش صياد اليمام . قال

ــ كل ليلة يفعل هذا . ؟

ــ ولايزال . لم يكف ولم يصل . لابد أنه بيت النية على غدر .

صمت صياد اليمام قليلا . قال

ــ إنه لم يذكر لي شيئا عنك . ألم تتحدث معه من قبل ؟

قال العجوز على الفور .

ــ لماذا اتحدث معه ؟

لم يفهم صياد اليمام . صمت وفكر في القيام . قال العجوز مباغتاً .

ــ مازلت مؤملا في صيد اليمام ؟

لم يرد .

ــ أنت بالتأكيد لا تعرف عدد اليمام الذي اصطدته ؟ إنني مازلت اعرف كم كان عدد مركبات الانجليز في فوكة واعرف كم يوما عملت ليلا أو نهارا !!! .

للمرة الثالثة كان يسمع السؤال . ترك العجوز متعجبا من الجميع . اتجه الى رصيف القصب حيث جولته الأخيرة . لم يكن يدري أنه سيسمع السؤال

هناك أيضا . والآن يتساءل هل كان لهذا السؤال من معنى لا يفهمه ؟ لكن العصافير تصخب ورأس الثعبان يظهر ، فتخرج حبة الرش الى هدفها الذي انتظره كثيرا . يحس بالعرق قد بلل ملابسه رغم ظل المكان وبرودته .

○ ○ يريد أن ينام في مكانه . يود لو يتحول الرصيف الى خيمة دافئة . يرى مظلة العصافير تطير متفرقة ثم تعود متتابعة . افزعها صوت انطلاق حبة الرش . لكنها تطير من جديد ولا يجد العصفور الصغير معها . إنه لا يستطيع الطيران . وربما مات . لكن العصافير التي كانت تصرخ من اجله لم تحمله . لماذا إذن تجمعت ؟ لماذا قتل الثعبان ؟ . أي حماقة يرتكبها الجميع .

لم يشأ أن ينهض ليقترب من الثعبان الميت . يدرك أنه سيرى رأسه مغطى بالدم ، وربما السم . وسيرى طوابير نمل تأتي من كل اتجاه لتزحف فوق الثعبان . نمل صغير قذر يظل قابعا في شقوق بعيدة لا تلفت الانظار ، وربما لا تخطر ببال أحد ، لكنه يظهر بعد أن ينتهي كل شيء فيكون هو الفائز بالغنيمة ، و يمشي منفردا أو متجمعا مزهوا بنفسه فيملأ أعين الأغبياء ويسد الطريق . وصياد اليمام لا يريد أن يتقيأ . لكن هل سيظل منبطحا هكذا ؟ . هل حقا سينام ؟ . إن الصوت الفاتن ، العاهر ، يسقط فوق رأسه تصحبه ضحكة مجلجلة واهتزاز في الكون .

ــ تصطاد الثعابين ؟

كان قد بدأ يتذكر أن طفله في الصباح لم يطلب منه أن يصحبه ليصطاد العصافير . قال فقط « خذني معك أصطاد » . لكن الذي قال « أنت كبير تصطاد اليمام وأنا صغير اصطاد العصافير » كان صوته أجمل ووجهه ابهى . صورته الان تجري في الفضاء .

يحس أن جسمه صار ثقيلا لا قبل لروحه على حمله ! . الخدعة ليست في الذي علمه الصيد واختفى . ولا فيمن اختفوا بعد أن سألوه السؤال الغامض . الآن يدرك صياد اليمام أو يكاد . لكن الصوت سرعان ما يهرب من أذنيه . الصورة البهية تضيع من عينيه . لايسمع إلا الصوت الجميل العاهر يتردد من بعيد كأنه قادم من فوق السقف .

○ ○ ○

قام مستندا على يده اليسرى بينما كانت تضحك . علق البندقية والمخلاة حول كتفه . جعل ينظف ثيابه .

ــ أنت . ماذا جاء بك اليوم ؟

ــ إنني اجيء كل يوم . وكل يوم أجمع الحبوب المبعثرة فوق الأرصفة .

ــ الكنك فوق رصيف القصب . ؟

ــ شاهدتك وأنا على رصيف الحبوب .

قال وهو يسير .

ــ هل امك معك ؟

ضحكت .

ــ إننا نقترب من الليل . إنها مع شرطي الرصيف .

لم يكن في حاجة الى ما يفعله معها مثلما هو اليوم . قالت وهي ترتدي سروالها .

ــ سأراك غداً .

كانت عربة السكة الحديد معتمة حولهما . دائما هي كذلك . إنه لاينسى وقع ضربات اقدامهما حين يتهاوى الكون ، وتتساقط حجب الغيب وتتكشف جدران العربة عن دنيا بيضاء بيضاء . لكن وقع الضربات لم يفزعهما قط . ليس في الكون ثمة أحد يسمع ـ وهما لايسمعان إلا بعد أن ينتهيا . ويسمعان صدى

بعيدا جميلا . وجهها الخمري يضيء أمام عينيه . يتراجع وجه زوجته الطيب . لم يعد كما رآها حين صعدت فوق السطح بعد طول انقطاع . كانت متألقة سعيدة تكاد ترقص فاندفع قائلا .

ــ هل تقبلين الاعتذار ؟

أقتربت تتمايل ضاحكة . قالت .

ــ من أنت ؟

وعضت شفتها السفلى فكاد يسألها من أنت ؟ لكنه قال .

ــ صياد يمام .

ضحكت حتى خالها تغازل الكون السابح في لجنة النور . أوشك أن يضحك فأمسك . وجهه ليس مثل وجهها في بهائه .

ــ فقط ؟

قالت واقتربت أكثر . قال .

ــ أعمل قبانيا . لكنى صياد يمام .

ــ صيد اليمام ليس عملا .

قالت ذلك ثم وضعت سبابتها على شفتيها خجلى .

ــ لم ؟

أغمضت عينيها . حقا لم ؟ قالت .

ــ لماذا أردت الاعتذار ؟

أرتبك . غيرت الموضوع فجأة . هل هي حقا تعرف طريقها . أم أنها الاسكندرية تطبع ابناءها بالفرح والانطلاق ؟

ــ لا أعرف . لكن يبدو أنك غاضبة مني .

ــ أنا لا أغضب من أحد .

ولم يغضب . صارت زوجته . لم تغضب . وحتى الآن لا يبدو عليها غضب . تراجعت عيناها كما تراجعت عيناه . ذبل وجهها كما ذبل وجهه . خمسة عشر عاما شيء كثير حقا على طائرين . لكن ليست السنون وحدها هي التي باعدت

بينهما . لقد صارت أكثر طيبة ووداعة . لكنه يعرف الآن أنها تود من الدنيا الانسحاب . تماما كملاك احمق صدق أن الأرض أجمل من السماء . لكن كيف ظل هو مناوئا . تعرف زوجته مالا يعرفه . ربما رأت مالم يره . لماذا لم يسألها من قبل ؟ لماذا ينسى كلما قرر . ؟ . إنه لا يصدق أن هند جامعة الحبوب الجميلة صارت مرفأه رغم أنه صار يسعى اليها في العام الأخير كثيرا . كانت صغيرة حين رآها في كشك الشاى أول مرة . كان ذلك منذ عشر سنوات . يزعم لنفسه أنه أخذ بجمالها البرىء . وجهها الخمري وعينيها اللوزيتين اللتين لا يعرف أسوداوين أم عسليتين . ؟ يعرف فقط انهما ماكرتين كعيون الأطفال . يزعم أن ملابسها الواسعة الممزقة كانت جميلة . سألها قالت أنها جاءت مع أبيها وأمها من الصعيد في رحلة لم تفهمها حتى بعد أن كبرت . أن اباها الذي كان خفيرا فوق رصيف القصب بنى لهما كشكا تحت كوبري التاريخ عاشوا فيه ثلاثة ، حتى سمعته يقول لأمها إنه ضجر من كل شيىء . قالت إنها وهى صغيرة كانت تصعد من تحت الكوبري لشراء شيىء فتراه يزن القطن ، ولم تكن تعرف أنها ستقابله بعد ذلك . وإنها صعدت مرة ولم تجده ، ثم لم تعد تراه كل يوم فلم تعد تنظر الى من يزن القطن . لم يصدق . قالت لماذا لا يصدق ؟ . لم يرد . صارت ناضجة تملأ عينيه وتحرك روحه . قال إنه كان ينظر اليها حين تذهب مع ابيها الى كشك « قمر » ويشفق عليها . لكنه لم يفكر فيها حتى فوجىء بها كبيرة هكذا . قالت إنها سمعت أباها يقول لأمها أن رحلته للاسكندرية خابت . لقد جرب أن يمسح الأحذية فطاردته الشرطة ، وكثر الوحل حتى يئست الناس من مسح الأحذية . جرب أن يبيع الكحك أمام المدارس فخطف منه الأطفال أكثر مما باع . أن يبيع الجبن والمش جوار الكوبرى فضربه الباعة القدامى ، رغم أنه يكنس تحت الكوبرى ، وهم لا يعرف أحد أين يعيشون . إن صحته ضعيفة . وربما هو الصعيدي الوحيد في الاسكندرية الذي لايستطيع العمل في الخرسان . وحراسة القصب موسمية ، وتجار القصب يمصون الدم قبل السكر . ثم سمعته بعد ذلك يتحدث عن السفن التي تأتي الى الميناء ، كيف سيعمل فوقها وكيف أنها مصدر

مال وهدايا كبير . ثم أنه وسيم يستطيع أن يخلع الجلباب ويرتدي بدلة العمال الزرقاء . ولما حدثته امها عن الغياب ، قال إن رحلات السفن قصيرة مهما طالت لأن فرحة اللقاء العاتية تُنسى كل شيىء .

ـــ ألم يعد أبوك بعد ؟

كان لايريدها أن تنصرف . سألها وهو يعرف الأجابة . وإنها لم تعد تتحدث عنه منذ أكثر من العام . وهو في الوقت الذي رآها تحاول أن تنسى كان يذكر أباها . قالت .

ـــ أما زلت تذكر . ؟

فكر كيف إنه على طول معرفته بها لم ير امها من قبل . لابد انها تنسى مع الشرطي احزانا كثيرة . لاينبغي أن يكون ظالما الى النهاية . لن يسألها عن ذلك وسيبتسم . لقد حمل المسكين حزنها ولم يخبرها . وحتى الآن لا يعرف لماذا فعل ذلك . ربما لأن صياد اليمام دائم البحث فوق الأرض عن أشياء طائرة في الفضاء !

○ ○ حين تحدث لأول مرة مع أحد رواد البار ضحك الجالسون جميعا . قال أكثر من واحد « من أنت ياأخ . هل أنت معنا في البار ؟ » . كان أصحاب ثلاثة وجوه يرتاح الى رؤيتها هم الذين يقودون الضحك والكلام . أحدهم هو الذي خاطبه . انقذه الجرسون .

ـــ لا مؤاخذة ياجماعة . البيك دائما محترم . أنا شبت والبيك محترم منذ أيام الشباب !

ادرك الجرسون أنه صب الزيت على النار دون أن يدري ، فاستغرق في الضحك وازداد الهرج . كان يمكن لصياد اليمام أن ينسحق . أن يخرج . لكنه وجد نفسه يضحك . أمر مثير للضحك حقا أن يتحدث بعد السنين الطويلة الصامته . وكيف تحدث . لقد همس .

— حضرتك تعمل في الميناء ؟
وفوجىء بالصخر يسقط من فوق الجبل . انخفض الضحك كثيرا وترددت أصوات السعال في أكثر من ناحية ، بينما قال الشخص الذي همس اليه .
— لا . الحقيقة الميناء تعمل فينا جميعا !
وقام ضاحكا ضاربا المنضدة بيده يخاطب الجالسين .
— يسألني إذا كنت اعمل في الميناء . أخيرا عرفت أن الاسكندرية لا تعرفني .

عاد الضحك والضرب يملأ المكان ! . البعض صار يسعل بقوة والبعض يبصق فوق الأرض . قال نفس الشخص الذي كان متوسط العمر مثل رفيقيه .
— أخيرا نطق قايتباى !
إذن فهم يسمونه قايتباى وهو لايدري . طوال السنين الماضية كان مثل القلعة الرابضة عند الطرف الشرقي من المدينة لا يعرف أحد لها عملا . وقال أحد الثلاثة .
— مشروبات قايتباى كلها عندي .
— لا عندي وسيدي العدوي .
— لا . البار كله يشرب على حسابي .
قال الثلاثة ثم نهضوا والتفوا جالسين حول منضدة صياد اليمام ، وتطلعوا اليه جاهدين في قمع ضحكاتهم .
— لا مؤاخذة . ليس فينا من غضب .
كان يشعر بوجهه الذي لايراه ، يتنقل بين الألوان ساخنا كما يتنقل القطار بين أعمدة اسلاك التليفونات . لكنهم فوجئوا به ينفجر ضاحكا مرة أخرى فعادوا يضحكون بينما هدأ بقية الرواد وانشغلوا عنهم .

— حقيقة ماذا تقول ؟ أنا خدامك كمال .
تردد صياد اليمام قليلا ثم قال .

— فقط كنت أسأل ما إذا كنت تعمل في الميناء ؟
قال كمال على الفور .
— أنا أعمل في المينا . سلامة يعمل في المينا . مصطفى يعمل في المينا .— وبعد لحظة — كلنا مينا موحد القطرين !
عادوا يصخبون من جديد وصياد اليمام يضحك معهم .

قال سلامة .
— كمال ثانوية أزهرية . كان المفروض أن يجلس في الجامع فجلس على ظهر البحر .

بدا إنه لم يعد ممكنا الضحك أكثر . قال كمال .
— وانت ؟
— على . صياد يمام .
لاحظ أن هذه أول مرة يقول فيها أسمه لأحد بعد أن ترك عمله في مكابس القطن .
قال كمال .
— على لن يهمنا . سنسميك صياد اليمام . هذا أجمل .
قال .
— كنت أريد أن أعرف كيف تسافرون ؟

○ ○ ○

عرف أن هناك أكثر من شركة ملاحة ومكتب لتنظيم رحلات العاملين المصريين على السفن . إن كل سفينة تأتي أو ترحل تسجل رحلتها وأسماء المصريين الذين يعملون فوقها . إنه لا يمكن وقوع خطأ إلا إذا اراد أحد أن يهرب من البلاد . اخبرهم أنه يبحث عن قريب له من الصعيد أسمه « مرعي أبو الذهب »

خرج منذ ثلاثة أعوام ليعمل على سفينة لم يقل لاحد عن أسمها أو رحلتها أو جنسيتها ، وحتى الآن لم يعد . وعدوه بالمساعدة ، لكنهم اختفوا .

حين ظهروا من جديد ، قالوا أن الباخرة التي كانوا يعملون فوقها ، غرقت في البحر الاسود بعد عاصفة سوداء ، وإنهم انتشلوا الى ميناء أوديسا بأعجوبه . من هناك انتقلوا الى العمل فوق باخرة ايطاليه قطعت رحلة طويله الى بنما . هذا هو سر اختفائهم لمدة عام . وجعلوا يضحكون . سألوه إذا كان قريبه قد عاد فطلب منهم مواصلة البحث . أمضوا أسبوعين في الاسكندرية أخبروه خلالهما أنهم يبحثون في سجلات الشركات والتوكيلات الملاحية عن قريبه هذا لكنهم لم يصلوا إلى شيء . قالوا إنه لم يسافر على أى سفينه . لم يكن هو يخبر الفتاه بشيىء مما يفعله . وحتى الآن لم يخبرها . ولا يعرف لماذا كان يريد أن يعيد هذا الغائب من وراء الافق .

بعد شهر عاد مصطفى وكَال . أخبراه أن « سلامة » انتقل للعمل فوق سفينه لبنانية . سلامة يحب بيروت دون موانى الدنيا كلها . أنهما سألا عن قريبه المقاولين الذين يعملون في شحن وتفريغ السفن . وهكذا يكون البحث قد تم عنه في البحر والبر ولم يُعثر له على أثر .

لم يعلق .

بعد شهر عاد مصطفى وحده الى البار . أخبره أن سلامة لم يعد حتى الآن من لبنان . ضربت الزوارق الاسرائيلية السفينه في ميناء صيدا . المصري الوحيد الذي كان على السفينة اللبنانية غير سلامة عاد ، وقال أن الضرب تم وسلامة على الشاطىء .

قال صياد اليمام .

ـــ لعله يعود بعد فترة .

قال مصطفى .

ـــ إننا ننتظر . لقد حذرناه من خط لبنان .

قال صياد اليمام .

ـــ أين كَال . ؟

قال مصطفى .

ـــ ألم تقرأ في الصحف . ؟

ـــ لا . ماذا حدث .؟

ـــ إنه المصري الذي قتل ايطاليا في نابولي .

وضع صياد اليمام كأس الروم ونظر داخله . ماذا يجري ؟ تتحطم السفينة فوق الماء وسلامه فوق الأرض ولا يعود ، بينما يعود من كان بالسفينة وقت الضرب . وكَال يقتل ايطاليا في نابولي ؟ يحدث كل هذا لإنه سأل عن رجل تاه أو اختفى . لماذا لم يظل صامتا في البار ؟ .

قال شارداً .

ـــ كيف . ؟

وصار البار الصغير متسعا من الخلاء المفرغ من الهواء ، خانقا وقابضا . بدأت أشياء غريبه مثل النمل وليست مثل النمل ، إنه لا يدركها تماما ، تخرج من أعلى رأسه ، وهواء ثقيل أسود يحتل فراغ الرأس .

حكى مصطفى كيف قابل كَال صديقا ايرلنديا في نابولي يعمل على باخره انجليزيه فقرر أن يترك السفينة الايطاليه ويعمل مع صديقه الايرلندي الذي كان يعمل معه من قبل منذ عشر سنوات . لكن القبطان الايطالي رفض أن يتركه إلا في مصر حين تعود السفينه مرة أخرى . كَال كهربائي نادر له سمعته فوق السفن ويستطيع ترك أى سفينه ليعمل على غيرها فورا وكثيرا مافعل ذلك من قبل . وإذا حدث ورفض قبطان اعطائه جواز السفر وتسريحه كان ـــ كَال ـــ يهرب . « إذا قبض عليّ سيعيدوني إلى السفينه إن ظلت في الميناء . أو الى السفاره المصرية .

في الحالتين لن أخسر » هكذا يقول دائما ، ولقد هرب أكثر من مره فشل في بعضها ونجح في الاخرى . كان يستطيع إستخراج جواز سفر في أى وقت . علاقاته الطيبه مع سلطات الميناء في الاسكندرية سهلت له ذلك . هداياه كثيره وأن تسرب معظمها الى نساء شارع الحجاري .

هذه المرة هرب كال . حذره مصطفى . « القبطان قرصان صقلي أعرج شرس لابد كان لص سفن في قبرص أو مالطة » قال كال لمصطفى قبل أن ينزل الى المدينه التي عربد في أحد باراتها عربدة اسكندراني . « يعني ماالهاش لازمة » قال مصطفى . انتهت العربده بأن ضرب البارمان بزجاجة فوق رأسه فمات . لم يسمح القبطان لمصطفى أن ينزل الى المدينه ليتابع قضيه صديقه . « أنا لا أملك جرأة كال . لكنى لا أصدق أنه يقتل » . قال مصطفى .

عاد صياد اليمام من الخلاء الخانق . في عودته واجهت عينيه عين شمس صغيرة حمراء حاده قاسيه . عرق كثيرا بشكل ملفت للنظر . قال مصطفى .

— أخبرت سلطات الميناء فوجدتهم يعرفون القصه . عرفت أنها نشرت بالصحف .

لأيعرف صياد اليمام لماذا فكر أن يسأل عن أسرة صديقه . إنه لم يسأل أحدا عن أسرته منذ وصل الاسكندرية . كل ما عرفه من الذين عرفهم ساقوه اليه دون أن يسألهم .

لا يعرف أيضا لماذا لم يسأل !! ترك البار ولم يعد لأيام قليله . عاد فلم يجد مصطفى . لشهور لم يعد مصطفى . في كل مرة يحسبه الجرسون حزينا . « مازلت تسأل عن مصطفى » . يقول الجرسون . لا يعرف الجرسون سر جهامة صياد اليمام . الحكايات باهته كلها والرواية في الأصل مهزله يدير وقائعها

لئيم . آخر مره كانت منذ أسابيع ، ليلة أن حدثه الشرطي عن الطفل الجميل الذي دهمه القطار .

لم يفكر صياد اليمام أن يخبر هند بشيىء . تاق حقا أن يأتيها بخبر . لم يتكتم بحثه عن أبيها خوفا أو توقعا للفشل . أراد أن يكون صاحب مفاجاه سارة لاحد أى أحد . كان البحر مفاجأه .

○ ○ ○

قالت واجمه .

— يبدو أن كلاً منا قد ارتاح إلى حياته .

لم يفهم . قالت مبتسمه .

— ثم إنني أكبر وأصير جميلة .

ضحكت وهي تقترب منه . تعرف أنه حين يراها يرتبك ، منذ خمس سنوات حين شاهدها لأول مرة في كشك الشاى مع أبيها ، كانت جالسة القرفصاء حول كوم من حبوب القمح . انحسر جلبابها عن ساقيها فكشف جزءا من أعلى الركبتين السوداويين . « إنها ترتكز عليهما كثيرا » . قال في نفسه وبدا مرتبكا فأدركته . هذه المرة لم يرتبك . اقترب منها . أرادت أن تتراجع . لم يحدث أن كان قويا من قبل . إنه يهواها بحق . لكنه اليوم لم يتلعثم أو يرتعش . اقتربت علّه يعود هاويا ! قالت .

— يكفي مره واحده . أمي في انتظاري .

— قلت انها مع الشرطي .

وجذبها . قالت وهي ترفع سروالها الى وسطها . لم تخلعه هذه المره . تركته معلقا فوق احدى عقبيها .

— أنت اليوم غريب .
لم يعلق . قالت .
— أنت تعرف « طلبة » العجوز ؟
— وأجلس معه كل يوم . هل أسمه طلبة ؟
ضحكت .
— كيف إذن تجلس معه كل يوم ؟
لم يرد . أخبره العجوز منذ قليل باسم الشرطي لأول مرة ، وها هى تخبره باسم العجوز الذي جلس معه أكثر من عام . لم يعد يندهش . قالت بخجل .
— ألم يقل لك شيئا ؟
— يتحدث معي في كل شيىء . ماذا تعنين ؟
— يريد أن يتزوج أمي .
ضحك عاليا فتردد الصدى في العربه المظلمه كأنه طرقات النحاس في كهف .
قال :
— هل تعرفين موسى الشرطي ؟
— أجل .
— أخبرني اليوم طلبة العجوز أنه يريد أن يتزوج من قمر .
تعلقت بكتفيه كقطه . كانت صادقه حتى أنه سمع دقات قلبها وهى تقول .
— أريد أن أتزوجك .
بوغت . رآها يمامة سعيده . كاد يضحك فأحس بالاسف . قال .
— طلبه العجوز يقول أن قمر ترفض الزواج من موسى الشرطي .
تركت كتفيه . تراجعت . قالت كأنها تحدث نفسها
— أمي تقول أن أبي سيعود .
خرجا من العربه يفكر كلاهما في شيء يقوله للآخر قبل الفراق .
— هل تريني قاسيا ؟
قال فبدا أنها لم تسمع لأنها قالت .

— إنك منذ سنوات لا تصطاد .
— لكنني سأصطاد يوما .
قالت .
— هل تعرف كم يمامه أصطدتها ؟
لم يكد يندهش للمره الرابعة في يوم واحد حتى تابعت .
— إننا نحصى عدد حبات القمح والاذره قبل أن نبيعها كل ليله . نحصيها حتى الصباح .

وضحكت وعاد اليوم الى ذهنه من أوله . كانت المصابيح المعلقة أسفل سقف الرصيف قد أضيئت فأدرك أن الليل قد دخل . لابد أن حوله ظلاما يحق . قالت وهى تبتعد .
— أنت صياد ماهر قتلت الثعبان من أول مره . سأراك غدا .
لم يرد . لم يعرف كيف فارقته ولا أى طريق سلكت . لماذا قالت سأراك غدا رغم قسوته . ؟ قالتها مرتين ، وهى لم تقلها على طول ما عرفها من قبل مرة ثم هاهو الغد يكاد ينصرم ولم تظهر . لقد قتل الثعبان ونهض ولا يجدها واقفه جواره كما حدث أمس حين قتل الثعبان ! .
لا يسمع الآن صوتها العاهر والكون لم يعد يهتز .

○○ ينظف ثيابه مما علق بها من تراب . يعلق المخلاه حول كتفه . يرفع بندقيته الى أعلى بالحركه اللاارادية . سيجدها بعد قليل . يقول لنفسه . يذكر أنه فوق رصيف القصب . دائما هى فوق رصيف الحبوب . أمس كانت صدفه . قتل ثعبانا اليوم يمسك بعصفور على نفس الرصيف ، وربما في نفس المكان . صدفه أيضا . أجل . أن يقتل ثعبانين في يومين متتاليين بنفس الطريقه صدفه . لا يمكن ان يكون صياد ثعابين . لكن العصافير في اليومين لم تحمل

العصفور الصغير اهذه صدفه أيضا !؟ فوق رصيف القصب كان يصطاد يماما كثيرا ويدهش . ذلك كان أيام الصيد . الآن يصطاد الثعابين ويختفي الجميع . تضيىء مصابيح الرصيف فوقه فيعرف آن النهار يوشك على الذهاب . ماذا سيفعل في الظلام . وسط البرد بلا مصباح يعلقه فوق بندقيته . أى يوم هذا الذي انقضى بلا طعام أو شراب . بلا حديث . بلا بشر . هل اختفوا حقا الى الابد ؟ لايصدق حتى الآن أنه لم يرى أحدا . كيف نسى أن يأكل ما أعدته له زوجته ووضعته بالمخلاه . آه منها وادعة العينين . تقول إنه لا يصطاد ، ولا تنسى أن تضع الطعام . تعافه كشيىء ثقيل وتنظر اليه بعينين دامعتين . أى عذاب ؟ . لماذا يكون على الصياد أن يتدثر دائما بالصبر ؟ لماذ يطول الصبر فيبدو كأنه مناط الحياه ؟

يهتز جسمه فيعرف أن البندقيه تهتز بين يديه . إنه يسعل . قالت أن البرد شديد . وهو يحس الآن حقا . ها هو جسمه يخذله . آن لصياد اليمام أن يستريح . آن لصياد اليمام أن يستريح . ضوء المصابيح الشاحب يرهق عينيه . ينزل البندقية ويعلقها على كتفه . يخرج من المخلاة غطاء من الصوف للرأس والوجه معا ويرتديه . يسرع الخطى وهو يمسح المخاط المنثال من أنفه بمنديله . سيخرج من الباب الذي دخل منه أول مره . سيرى زحاما فوق كوبري التاريخ وحوله من العربات والترام . في الشتاء لا ينتظم بحر الاسكندريه ولا بَرّها ، في الصيف وجهها يشوه . لكنه لم يره رؤية حقة .. دائما خلف الاشياء . الصيد جعله في المؤخره . لعله ليس الصيد . لايريد أن يعرف فينفجر . شيىء ما يؤلمه . يجعل أسنانه تضرس . يكاد يفجره . ليس البرد . ليس الحزن . كيف فاته أن يتبول ؟ كيف حبس البول كل هذا الوقت . لقد أحس بالرغبه في الضحى واتجه الى احدى العربات . يتذكر الآن أنه لم يدخل العربه ولم يتبول . كيف تحمل الوخزات الحادة في الحالب ومجرى البول ولم يشعر بها ؟ عادته القديمه السيئه في أن يتبول في الخلاء هى سبب هذا الالم . أجل . كان رغم وجود دورة مياه فوق

السطح قرب غرفته يهوي التبول وسط الليل من أعلى السطح ، ويستمع لصوت اصطدام قطرات البول بأرض الشارع وهو يقطع نوم الليل ! . وعلى طول المدن والقرى والطرق التي جرى فيها تبول فوق الارض وسط الليل والنهار . تحت الشمس والقمر . رأى في الظلام بوله بارقا كالكهرمان . ورآه أبيض . ورآه أحمر . وكان يعرف أنه سيعاني من ذلك فيما بعد . انقذه الزواج حين خليت شقة في المنزل فاضطر لترك السطح . لكنه لم ينقطع عن عادته خلال الصيد .

يتجه بسرعة ليقفز من فوق رصيف القصب الذي أختفت من جانبيه العربات اليوم . يريد أن يصعد عربة قريبه بين الأرصفه . سيغلق بابها عليه ويتبول . لن يفعلها في الخلاء مرة أخرى .

يتراجع فزعا رافعا ذراعيه لا يدري إلا وهو ساقط فوق الارض على ظهره . ليس هذا الذي وقف على صدره بقدميه ورفرف بجناحيه العريضين في وجهه وكاد ينقره في فمه يمامة . يتابعه الآن طائرا اسفل سقف الرصيف مبتعدا . يراه يعود مرة أخرى أسود جهما وفي سرعة يبدو منها أنه سينقض فوقه ليتم ما لم يفعله .

يقترب فإذا به ليس أسود ولا جهما . ينهض صياد اليمام بسرعة غير معط للدهشة عينا ولا شفة . على يقين الآن أن ما حدث ليس بمعجزه . الطائر يمامه ـــ يمامه تسبح تحت الرصيف ذاهبة آيبه . يمامه تفتح باب السرور . يمامه طال الشوق اليها أو طال شوقها فعادت جائعة بعد الضنى . إنها لتسبق يماما سيأتي يسبق الأيام . يضحك وينزل البندقيه المعلقة حول كتفه . تتفجر دموعه وتنثال ساخنة تغرق وجهه وتختلط بمخاطه وهو يضع بالبندقيه حبة الرش بعد أن فرغت حين قتل الثعبان . يتابع اليمامه بخيوط سلكيه تخرج من عينيه . يمسح مخاطه ودموعه من فوق وجهه وشفتيه . يجري خلف اليمامه ناظرا اليها . يتمنى أن تعود . يريد أن يكون تحتها لحظة واحده . ينسى البول والألم . تسقط المخلاه فيتركها . يريد اليمامة وهذه فرصته الوحيده ليهزم صوت الريح وفراغ المكان . لو فاز

بها سيبها لقمر وهند والشرطي والعجوز . سيعودون . ستبكي زوجته إذ تعود البهجه لعيني زوجها . خمسة أعوام من الخيبه ليست بالأمر السهل على رجل في قلبه دم ساخن . صياد لا يعرف إلا الصيد . صياد لايريد أن ينظر الى قدميه .

تقف اليمامة أسفل السقف وهو بعد لم يصل اليها . مايكاد يقترب حتى تطير بقوة فاردة جناحيها عائده فتصبح خلفه . باغتته فلم ييأس . لايريد الآن إلا أن يبقى الوميض الاخير للنهار قليلا . نور مصابيح السقف عجوز وهو لم يحضر معه مصباحا يهديه . تقف اليمامه من جديد وهو يلهث للحاق بها . يقرر أن يصوب اليها طائرة لو عادت . فليركز كل حواسه في أن يطلق بندقيته في اللحظة التي لا يعرفها الزمن ، ولا يدركها الظلام ! ولن يفشل أو تخونه قدرته . يقف ناظرا الى اليمامه . يخطو بترقب نمر . اليمامه اللعينه لا تعود هذه المره . تطير الى ناحية رصيف الباشا . يتابعها محسورا . هل يجري وراءها عبر القضبان والارصفه . والآن ؟ لكنه لن يستطيع تركها . إذا لم يوقع بها لن يأتي أبدا يمام . آه . ماذا تريد أن تفعل به .؟ والليل ثقيل الوجه تسبقه أنفاسه السوداء . تقف اليمامة تحت سقف رصيف الباشا عند حافة أحدى العوارض العاليه ويراها من بعيد . مايزال صياد اليمام حاد النظر . ألم يقتل الثعبان منذ قليل . ضوء الغسق ما يزال يساعده . تقفز من فوق الرصيف . عيناه معلقتان بها وقدماه تقفزان فوق القضبان ولا تخطئان . يذكر صياد اليمام أن ذلك لم يحدث له من قبل غير مرة واحده . لم تقف اليمامه فوق صدره كما فعلت هذه . لم تسقطه فوق الارض . أتعبته كثيرا وهى تطير بين الارصفه . دخل اللعبة معها تحديا . قال له « لاتتحرك . أمسك المخلاه وانتظرني سأحضرها حية . لن تكون لغيرك » . يكاد يتعثر . ماذا قال الشرطي اللعين أول مرة . لم يقف . حمل المخلاه وجرى خلفه يكاد يسقط بها . كان يريد اليمامة . ينسى صياد اليمام من علمه الصيد ومن سألوه السؤال المحير . الصوره الجميله للوجه البهى تعود تجري أمامه . هو الذي قال « أنت كبير تصطاد اليمام وأنا صغير أصطاد العصافير » هو الذي تابعه حاملا المخلاه الكاكي صغيرا بثيابه

البيضاء فوق أرض سوداء . كان صياد اليمام يطارد اليمامه وقلبه مضطرب عليه أن يتعثر خلفه . لم يحب لثيابه البيضاء أن تتسخ ، ولا لوجهه البرىء أن يُجرح .

ما يكاد يقترب قليلا من الرصيف حتى تطير اليمامه سابحة تحت السقف . يصعد الرصيف بصعوبه . يقف يتابعها . يقرر أن ينتظرها . يعرف أنها ستعود . لقد دخلت اللعبه فيما يبدو عارفة بأصولها . لكن الوجه الجميل مثل نور الصباح يطير مع اليمامه ناظرا اليه ! .

○ ○ ○

— قلت لا تأخذه

— ....

— قلت لن يصطاد . صحته لا تتحمل البرد أو الحر .

— ....

— صار يكره المدرسه .

ولا يرد . لايقدر على تركه . يأخذه عنوة والطفل فرحان . تسقط اليمامه فيتمنى أن لايكون السقوط بعيدا حتى لايرهق الطفل بالجرى خلفها . لكن كثيرا ما تسقط اليمامه على رصيف غير الذي أصابها فوقه فيسبقه ويقفز بلا خوف فوق القضبان ، ويجرى عائداً بها ضاحكا ولا يشكو . يقول إنه يريد يمامة حيه تبيض في البيت وتفقس . يقول هو « أنت تريد أثنين إذن . » يقول « تكفي واحدة » . يضحك صياد اليمام ولا يفكر أن يشتري له يمامة حية . لماذا وهو صياد ؟

○ ○ ○

يسمع صوت اصطفاق جناحي اليمامة قويا وهى تمر فوقه كأنها طائرة ! .

يفيق . يستدير . يتابعها بعينيه . يجري من جديد . الصوره البهيه للطفل تجري أمامه خلف اليمامه التي تنتقل مرة أخرى الى الرصيف التالي . يقف متقطع الانفاس . الشرطي اللعين يحفظ رقم القطار ويختفي . لماذا لم يخبره أحد غير الشرطي بذلك . ؟

قمر التي جاءت إلى المنطقه يوم جاء ! . هند والعجوز ؟ . لماذا لم يسألهم هو . ؟

فكر في ذلك أكثر من مره وهو فوق السرير جوار زوجته التي صارت تغطي وجهها دائما ، لكنه لم يسأل . هم الذين سألوه سؤالا رخيصا عما إذا كان قد احصى حصاد الايام . ؟
وكان هو الذي يحصي . اليوم عشر . اليوم عشرين . اليوم صيد وفير . اليوم بيع رابح .ولم يظفر يوما بيمامة حية ذكرا أو أنثى .

يقفز من فوق الرصيف في هياج . يجرى غير عابىء بأنه قد يقع الآن . لقد زحف الليل وانقشع آخر ضوء للغسق . إن لم يساعده نور الارصفه المريض سيساعده صوت رفيف جناحيها . سيقتلها طائرة . تطير اليمامه تحت الرصيف فيصعد خلفها . تنقطع صورة الطفل الجميل . يشعر بها صارت خلفه . يكاد ينفجر في اتجاهين .

دائما كان يخشى عليه العثرة والسقوط . يقف مشدودا الى أرض الرصيف الصلده . اليمامه تقف قريبة منه أسفل السقف ولا يزال قادرا على رؤيتها كتله غامقه مكومه ويسمع أنفاسها هديلا . « لابد أن يقتل أحدنا الآخر » يقول ويسمعها تقول . تضحك وتتسع عيناها ماكرتين . منقارها الصغير يطول حتى يكاد يفقأ له عين . يصوب البندقيه ويطلق حبه الرش . فيسمع صوت

اصطدامها بالسقف

طارت عائده خلفه ومن فوق رأسه . لقد عرفت اليمامه الموت الآن ولن تتركه يقتلها . ياللصياد الظالم . يا للصياد التعس . لكنه يضع حبه الرش الاخرى .

آه . بعد خمس سنوات يطلق الرش في الهواء . لكنه لم يخب حين قتل الثعبان . يحس بجسمه يشتعل . يخلع غطاء الرأس والوجه يلقى به فوق الأرض بغيظ . يمد يده بعيدا يلمس اليد الطريه للطفل الجميل . ينظر فلا يراه . تتحرك الدموع تحت الاجفان . يعرف صياد اليمام الآن أن الدموع تختلف ويختلف البكاء . لكنه يبكي لأول مرة بحق . كيف لم يبك ذلك اليوم اللعين ؟ .

○ ○ ○

ـــ ماذا ستفعل اليوم ؟
كانت تبكي وهو خارج للصيد فلم يرد .
ـــ من يدفن الولد ؟
صارت تضرب صدرها بكفيها ثم لطمت صدغيها كثيرا . لكنه خرج . اليوم بارد مثل السابق مشى كثيرا بين القضبان وفوق الارصفه . قطارات كثيرة كانت تقف خلفها عربات مسطحة عديدة تحمل دبابات وعربات مصفحة ومدافع تأتي من كل أبواب المنطقه . الجنود الذين يصحبونها يضحكون ويغنون . العمال الصعايده يحيونهم . أنتهت الحرب منذ أسابيع لكن العتاد العسكري القادم من الميناء لم ينقطع . وكان هو قد حدث الطفل كثيرا عن أيام الحرب عن الحرب ، وانقطع الحديث . يذكر قوله « هل كل من يكبر يحارب ؟ » ورده « كل من يحارب يكبر » وسؤاله « هل حاربت يا أبي ؟ » وكيف قال لا .

لم يصطد شيئا ذلك اليوم . وها هو يتذكر . ظل أياما يمشي بين القضبان والأرصفه ناظرا الى الارض منقبا عن شيىء لايراه . يرى الجنود والعتاد ويسمع الناس تتحدث عن الانتصار هذه المرة . ثم عاد يصطاد أكثر من ذى قبل ثم انقطع اليمام . لم يعد يسمع من يحصى اليمام ولا زوجته التي كانت تسأل « كم بعت اليوم » ؟ فيسبقه الغلام قائلا العدد ومقدما الثمن . في كل يوم كان يقول له « اضربها في طرف رجلها فلا تموت » ويبدو صياد اليمام فاشلا ، يصوب فقط الى الجسد أو الرأس . يقول له « يا يحيى لاأستطيع أن أصطاد لك يمامه حيه » ولم يشأ أن يحدثه عن الظلم كيف يكون . ولا عن الحياه وكيف أنها شيىء غير مضمون . كان يعرف أنه كلما أصطاد يمامة ، تمنى يحيى أن تعيش فتخونه ويذبحها هو — الصياد — فيخون الجميع .

○ ○ ○

كانت اليمامه قد طارت وعبرت الأرصفه مرة أخرى في الاتجاه المعاكس وسمع رفيف جناحيها كالطبل . إنها تطوي المنطقة هذه اليمامة الصغيرة اللعينة . لم يستطع إلا أن يتابعها بأذنيه حزينا . يصوب بندقيته في الفضاء وراء الصوت ويطلق حبة الرش التي لا يعرف أين أستقرت .

يعود والألم البشع الحاد كالسكين يتلوى في مثانته ، فيدخل اقربّ عربة للرصيف الذي لا يعرف أسمه الآن . العربة مظلمة إلا من مستطيل مائل بعرض الباب المفتوح ينسكب فوقه ضوء المصابيح الواهن . يغلق باب العربة الحديدي الثقيل مقاوما الالم . يتجه إلى ركن في سباق مع اندفاع البول . لقد صارت العربة مظلمة تماما لكنه يعرف من صدى وقع قدميه طول العربة وعرضها وأين جدرانها . كلما اقترب من الجانب ضعف الصوت والصدى . هذه حاسه لا يملكها إلا صياد أو لص . يفك ازرار البنطلون بسرعة . لقد اغلق باب العربة لا

يدري لماذا . آه . أراد الابتعاد عن كل ريح . لن يعرض مثانته للبرد مرة اخرى . لن يترك البول يندفع . سيقطره قطرة قطرة ويشعر بالنار تشتعل في مجراه . لن يتخلى عن عادته . في المنتصف يطلقه فيندفع في قوس قوي له صوت حين يرتطم بأرض العربة الحديدية وصدى ، ويطير رذاذه مرتدا الى حذائيه . يريد سكينا بطيئة محماة من نار ازليه في يد قاتل بليد . يشتاق للالم المضني والممتع . وها هو يوسع مابين ساقيه بادئا طقسه الاحمق مثل كل شيء وتتسع به العربه المظلمة . تنبثق فيها شمس تملأها بالنور .

ينتهي مرهقا فيتراجع الى ركن أخر ، ولا يدري أنه صار يجلس شيئا فشيئا حتى لامست مؤخرته أرض العربه الرطبه . وإنه يفرد ساقيه على إتساعهما ويفتح صدره يريد هواء أكثر برودة وارطب . يضع البندقية نائمة جوارة . لقد سقطت المخلاة منه وهو يلهث وراء اليمامة . يبتسم . هل يرى أحد ابتسامته الآن ؟ .

يتساءل هل مضت الأيام حقا ؟ الشرطي اللعين قال أكثر من سبع سنوات . وهو — صياد اليمام — يصدق أنه لم يصطد يمامة منذ خمس سنوات .

اصطاد بعد الحادثه ثم انقطع الصيد . ما فائدة صيد لم يحصه ؟ . لكنه باع وقبض الثمن ؟ اذن هى خمس سنوات . يبتسم . يفكر في عدد أكثر ثباتا . كم مضى من السنين منذ جاء الى الاسكندرية ؟ . خمس عشرة ؟ ست عشرة ؟ . ذلك أيضا لم يعد ثابتا . هل جاء حقا الى الاسكندرية .. المدينه التي لها أسم فريد ، لحروفه جرس جميل منفرد ؟ . كيف ولم ينزل بحرها ؟ . يحاول أن يعرف متى أدرك ذلك أو أحس به . يفتش في العربه المتسعه بالنور الغريب عن ماض كان رابضا على صدره وأمام عينيه . لا يذكر إلا أنه عرف في جنوب المدينة فريدة الاسم أربعة قيدتهم الأرض . أحبهم لكنهم خذلوه في يوم أراده حاسما . وامرأة انكسرت في عينيها جسارة المدن . ظنها بلسما وكره أن تكون البلسم . ولم يدرك

إلا الآن أنها جرح شقه هو ، وحاولت علاجه بقوة لا تملكها حتى الملائكه . لماذا فعلت ذلك المرأة الطيبة ؟؟ أي طهر دنسه . مسكين صياد اليمام لا يعرف القوه الخرافيه التي جعلت منه جرحا لزوجته . فهو الذي جعل الأفق الشمالي يخون ويطوي الثلاثه الذين عرفهم في البار . ألم يحدثهم ؟ . كان عليه أن يظل صامتا . حتى الذي وضعه في أرض هي في الحقيقه معلقه في الفضاء ، ما لبث أن هجر البر والبحر وقال طلاسم . يحاول صياد اليمام أن يتذكر اسم زميله فلا يناله . لقد زامله في العمل قبل الصيد وسمع اسمه يتردد كل يوم ! . وزميله نفسه لم يذكر اسمه في خطاب من خطاباته . يا للعبة الكريهه . تماما كما لم يعرف ــ صياد اليمام ــ أسمى العجوز والشرطي . لم يفكر أن يسألهما وكان يراهما كل يوم . فلماذا ينتظر أن يذكر له زميله اسمه . من أبطال هذه اللعبه . الرجال الذين لم يعرف اسماءهم أم النساء اللاتي لم ينسى اسمائهن ؟ . لكنه لا يتذكر اسم زوجته . حقا لايتذكر اسم زوجته .

يزداد الضوء يكاد يحرق العينين ولا يرى إلا خواء . ترتخي ذراعاه جانبيه . يميل رأسه على صدره . لا تريدين يا زوجتي الوديعه للطفل الآخر أن يتعلم الصيد . أنني لم أعلم الأول لو تعرفين . كم أنت حلم غريب .

يقرر أن ينهض ويخرج من أقرب باب عائدا إلى زوجته أسبق من الهواء والضوء ، باكيا بين يديها ، مقبلا خديها المثلجين ، مهدهدا روحها ، ساكبا على صدرها بحار حنان سحريه ، خارجا من ليله الثقيل ، معيدا لعينيها حرارتهما ، ولوجهها نضارته ، ولثغرها بهاءه ، جالسا معها فوق سطح يغازلان النجوم ، ويبعدان بايديهما السحب من تحت القمر ومن فوق سفينه ، واصلا أيامه بأيام كان يحلم أن يراها . لكنه يشعر بحاجة الى أن يتمدد أكثر ، ويشرب من الضوء الذي يملأ العربه .

بطيئا بطيئا يتمدد شاخصا بعينيه في الفراغ الواسع . تتسلل بهدوء الى جسمه قوة عارمه ويحتد بصره . لا يرى إلا ثيابا بيضاء تختلط بثياب سوداء تختلط بدم وتتبعثر وسط ريح تأتي من كل الاركان ، وتصنع في تبعثرها أشكالا مفزعه لطيور ذات أجنحه من شعر ، وحيوانات ذات مناقير ، ورجال بوجوه أطفال ، وأطفال عجزة ، ونساء تلتصق ظهورهن بظهور الرجال ويمشون ككائن واحد معذب يلوح ــ بأياديه الأربعه المنقسمة في الناحيتين برغبة أزليه أن تلمس بعضها بعضا وتقهر . وهو ــ صياد اليمام ــ يحاول أن يحاور الكائن الخرافي فيفشل ، ولايعرف كيف يأتيه . ثم يتحول ذلك كله الى أعداد وأعداد غير مفهومه ، ومايلبث المشهد المفزع أن يختفي .

يقرر أن يقص رؤيته على زوجته . يسألها أسمها بشجاعه ، ثم يصحبها الى شاطىء المكس القريب لأول مرة بعد أن انقطع عنه ، ويريان الرجال والنساء والاطفال يسبحون مع الخيل والحمير ، ويتابعان أسراب النورس . وبعد أن يرحل الجميع يتابعان ضوء الفنار وهو يكشف من بعيد قوس ماء سحري الضوء تقفز فوقه الاسماك التي كانت نائمه بيضاء مندهشه فرحة متلألئه ، ويعودان يحكيان للجيران حكاية سمك الليل الذي أهاجه ضوء الساحل ، فلا يصدقهما أحد ، ولاينقطعان عن الحديث .

يتمنى صياد اليمام أن يفعل ذلك حقا ، ولا يبالي بتراجع القوه التي كانت قد تسللت اليه بنفس الهدوء الخادع الذي أقبلت به ، وأن العربه مبهره الضوء صارت شيئا فشيئا تظلم مع تراجع قوته حتى أنها صارت الآن باردة باردة .

انتهت

١٩٨١

صدر للمؤلف

• فى الصيف السابع والستين	رواية	دار الثقافة الجديدة القاهرة	١٩٧٩
• ليلة العشق والدم	رواية	مطبوعات القاهرة	١٩٨٢
• مشاهد صغيرة حول سور كبير مجموعة قصص		وزارة الثقافة سوريا	١٩٨٢
• المسافات	رواية	دار المستقبل العربى القاهرة	١٩٨٣

• تحت الطبع

• الشجرة والعصافير	مجموعة قصص
• بيت الياسمين	رواية

« كان بحاجة إلى أن يشرب من هواء عذب . يمشى تحت شمس هادئة . يخرج الشوك من لحمه . يعصر قلبه بماء زهر الريحان . يجلو عينيه بضوء قمر . ولو كان يستطيع العيش تحت ماء البحر لفعل . فالاضواء التى تسكب من المصابيح البيضاء فوق الموج الاسود بالليل ، وتنعكس بهية كخيوط الذهب ، لابد تجعل الحياة تحت الماء مليئة بالمرح ، والهواء النقى القادم من البحر لابد أنفاس قوم طيبين ، وأسفل الماء لن يبحث عن أمه . سيدلونه عليها إن كانت هناك ، أو يعيدونه إلى الشاطىء ويقولون كيف يجدها بسلام . لم يكن سهلا أن ينسى ولكن كان عليه أن يفعل »

هذا هو صياد اليمام الذى وصل الاسكندرية فى زمن للحزن فيه بساط طائر وبساط مفروش وبينهما مقاعد كثيرة خالية . إنها قصة البحث المضنى . والكاتب الذى عرفناه « عيفا » فى « ليلة العشق والدم » و « المسافات » يبدو هنا متأملا كأنما ينفث نفثة الارتياح . إن « الصياد واليمام » عميقة الصلة بالروايتين السابقتين . تدور أيضا فى الاسكندرية التى لا يعرفها أحد ، وتتساءل مثلهما عن السؤال الكبير . كيف تمر السنون فنفاجأ بمرورها ولا نراها ...

دار المستقبل العربى
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت / ٦٦٥٩٠٠ القاهرة

